ليڤى بروڤنسال

الحضارة العربيّة في إسبانيا

ترجمة

دكتور الطاهر أحمد مكى

أستاذ الأدب ووكيل كلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الطبعة الثالثة



دار المعارف

● الطبعة الأولى :
محرم ١٣٩٩هـ.
ديسمبر ١٩٧٩م.

● الطبعة الثانية :
شعبان ١٤٠٥هـ.
مـــايو ١٩٨٥م.

● الطبعة الثالثة :
رجب ١٤١٤ هـ
ينـــاير ١٩٩٤ م

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة المترجم :

فى مطلع عام ١٩٣٨ جاء المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال إلى القاهرة، بدعوة من كلية الآداب فى الجامعة المصرية إذ ذاك، وألقى برعايتها، فى مارس من العام نفسه، ثلاث محاضرات فى الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة عن : «الحضارة العربية فى إسبانيا» باللغة الفرنسية، وجمع هذه المحاضرات فى العام نفسه، وأضاف إليها موجزاً بالمصادر الهامة التى عاد إليها، وملحقًا بالتواريخ البارزة فى تاريخ الأندلس، سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وفكريًا، وطبع ذلك كله باللغة الفرنسية فى القاهرة، وصدرت الطبعة الأولى منه بعد شهرين من إلقاء المحاضرات، أو إن شئت الدقة فى ٣٠ من أبريل عام ١٩٣٨، بعنوان : La Civilisation arabe en Espagne, Vue générale الحضارة العربية فى إسبانيا نظرة مجملة. ثم أعاد نشر هذه المحاضرات، أو الكتاب، مرة ثانية فى باريس، عام ١٩٤٨، فى نطاق سلسلة الدراسات التى كان يشرف على إصدارها، تحت عنوان : «إسلام أمس واليوم Islam d'hier et d'aujourdhui».

وأضفت إلى هذه الترجمة مقالا كان ليفى بروفنسال قد كتبه فى

«مجلة المعهد المصرى» فى مدريد، العدد الأول منها، وصدر عام ١٩٥٣، بعنون : «المذهب المالكى فى الأندلس، وإسهامات المذاهب المشرقية الأخرى Le Malikism andalou et les apportes doctrinaux de l'Orient. لأنى رأيت ذلك مفيدًا فى توضيح بعض الآراء التى أهملها المؤلف فى المحاضرات، أو جاء بها مجملة للغاية، فى الوقت الذى نعرف فيه جميعًا الدور الهام الذى لعبه الفقهاء فى حياة هذا القطر الوحيد الذى غابت عنه شمس الإسلام بعد قرون طويلة، وليس ببعيد أن تشرق من جديد.

أتيحت للمحاضر وكاتب المقال ميزات كثيرة تجعل لما يلقى أو يكتب أهمية خاصة، فقد وقف عمره على حضارة الأندلس والمغرب، فى مختلف جوانبها، وقدم لنا فى هذا المجال عددًا هائلا من الأبحاث والكتب والمقالات ونشر المخطوطات، وأعانه عليها أن المغرب الكبير فى تلك الفترة من الزمن كان واقعًا بأكمله تحت الاستعمار الفرنسى، فأتيح له أن يقتحم المكتبات العامة والخاصة، وأن يقع على مخطوطات لا تصل إليها يد غيره ولم يترك فى هذا سبيلا إلا سلكه، ولا وسيلة إلا استخدمها، مهما يكن موضعها من الرضى أو الكره، لا يرده عنها ما تواضع عليه الناس من سلوك، أو ساد بينهم من أعراف، ومهما تجاوز به الأمر حدود اللياقة أو الأخلاق.

وإلى جانب ذلك عمل أستاذًا فى جامعات باريس والجزائر،

وفى المعاهد العليا فى تونس والرباط، فأتاح له ذلك، وبعون فرنسا وثقلها فى كل الحالات، أن يعيش طويلا فى كل هذه الأمكنة، وأن يذرع شمال إفريقيا كله طولا وعرضا، وفيه تأصلت الحضارة الأندلسية، وإليه هاجر معظم الأندلسيين بعد أن طُردوا من وطنهم نهائيًا وجملة عام ١٦١٣م. وخالط هؤلاء وغيرهم، وعرف حياتهم فى أناة، وتأمل بيئاتهم عن قرب، وكان له فى حاضرهم تفسير معقول لما غمض من قضايا وطنهم فى ماضيه البعيد، ومن ثم كان ليفى بروفنسال حجة فيما يكتب أو يقول فى هذا المجال.

أقول ذلك، دون أن أتجاوز عن منهجى فى تناول ما يكتب المستشرقون، ورأيى دائمًا أنهم يكتبون فى ضوء فهمهم وذوقهم وتكوينهم المزاجى، ولصالح بلادهم وثقافتهم أولا وأخيرًا، وليس لنا أن نطلب منهم غير ذلك، والباحث الموضوعى الكامل لمّا يخلق، وبحسبنا منهم ألا يكذبوا، أو يزيّفوا، وعلينا أن نقف على قولهم، وأن نفيد من منهجهم، وأن نضع يدنا على الوثائق والحقائق التى تحت أيديهم، وهو أمر ليس متيسرًا على الدوام، وأن نأخذ من آرائهم ما هو حق، دون أن يصدنا جهل أو غرور، وأن نرد عليهم ما هو باطل، دون أن يقعد بنا تهاون أو جبن، ولهذا حرصت كعادتى على أن أترجم النص كاملا، فى أمانة، مهما يكن رأيى فى بعض ما يحمل من آراء.

***

ظهر أول بحث لليفى بروفنسال عن حضارة المغرب عام ١٩١٧، وما لبث أن لحق بزمرة المستشرقين الذين أصدروا مجلة هيسبيريس Hespéris فى باريس عام ١٩٢١، وأوقفوها على كل ما يتصل بتاريخ المغرب والأندلس وحضارتهما، وفيهم يومئذ الأثرى هنرى تراس، واللغوى جورج كولان، واختص ليفى بالتاريخ ومتعلقاته، وفى تلك الحقبة نشر الجزء الأول من فهرسته للمخطوطات العربية فى مكتبة الرباط، وبحثًا عن نسخة ملكية من المصحف الشريف ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى، ودراسة عن مخطوطتين جديدتين لكتاب «روضة النسرين»، وبحثًا عن نسخة من «كتاب العبر» لابن خلدون، كان المؤلف نفسه قد أهداها إلى مكتبة القرويين فى فاس، ولما مات هنرى باسيه عام ١٩٢٦، خلفه ليفى بروفنسال فى إدارة هيسبيريس والمعهد العالى للدراسات المغربية على السواء.

وبدأ اتصاله بالأندلس عن طريق المخطوطات أيضًا، حين قدم إسبانيا ليضع فهرسًا للمخطوطات العربية فى الإسكوريال يكمل به الفهرس الذى سبق أن بدأه المستشرق الفرنسى درنبورج، وظهرت تكملته، وكان الجزء الثالث، فى باريس عام ١٩٢٨.

ومن المخطوطات الأندلسية الهامة التى نشرها نصوص تتصل بأخبار المهدى، محمد بن تومرت، وابتداء دولة الموحدين، لمؤلفها أبى بكر الصنهاجى، ويكنى بالبيدق، ونشرها ليفى بروفنسال

بعنوان : « وثائق لم تنشر من قبل فى تاريخ الموحدين »، باريس عام ١٩٢٨، و« صفة جزيرة الأندلس »، وانتخب مادته من كتاب « الروض المعطار فى خبر الأقطار »، لأبى عبد الله بن عبد المنعم الحميرى، ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر فى القاهرة عام ١٩٣٧ .

والجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى ونشره فى ليدن عام ١٩٣٠ وكتاب الأمير عبد الله، آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة، المسمى بكتاب التبيان، ونشره فى القاهرة عام ١٩٥٥، فى سلسلة « ذخائر العرب » التى تصدرها دار المعارف فى القاهرة، بعنوان : « مذكرات الأمير عبدالله »، وثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب، ونشرها المعهد الفرنسى فى القاهرة عام ١٩٥٥، وتضم رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة، ورسالة أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف فى آداب الحسبة والمحتسب، ورسالة عمر بن عثمان فى الحسبة.

وبعد أن انتهت مرحلة الأبحاث المفردة، وجمع المخطوطات وتصنيفها ونشرها، كتبًا أو فى المجلات المتخصصة، عكف على كتابة تاريخ الأندلس، فكان كتابه الرائع : تاريخ إسبانيا الإسلامية حتى سقوط الخلافة، وإسبانيا الإسلامية، النظم والحياة الاجتماعية، وهما أفضل ما كتب فى هذا المجال، وكلاهما مترجم إلى اللغة الإسبانية.

ثم أنشأ مجلة أرابيكا Arabica فى باريس، ليلتقى حولها المستشرقون، والمتخصصون فى الدراسات العربية بعامة وفى المغربية والأندلسية بخاصة، وكان يرأس تحريرها، ولا تزال توالى صدورها، وتتمتع بقدر كبير من التقدير والاحترام فى دوائر المثقفين.

وكان فى نيته أن يمضى بتاريخ الأندلس حتى نهاية دولة الإسلام فيه، ولكن المنية عاجلته، فتوفى فى ٢٦ من مارس ١٩٥٦.

وبعد، فالكتاب بين يدى القارىء، وهو فى تركيزه يغنى عن كثير، ولقد بذلت فيه من الجهد ما وسعنى، فما كان صوابًا فمن فضل الله، وما تجاوزت فيه الحق، فعلى غير رغبة منى ولا إرادة، والبشر خطّاءون، ولقد أتيت على هوامش كل فصل فى آخره، وما جاء بأسفل الصفحات، وهو قليل، حررته أنا، تعليقًا أو توضيحًا.

ومن الله التوفيق، وعنده حسن الجزاء.

الدكتور الطاهر أحمد مكى

٣ شارع مصدق
الدقى - الجيزة
ت : ٣٦١٣٣٠٦
٣٤٧٩٣٩٢

الفصل الأول

الغرب الإسلامى
والحضارة العربية الإسلامية

عدد محدود فحسب بين مؤرخى الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى استطاع فيما يبدو، حتى هذه اللحظة، أن يفسح المجال لتعبير سهل، وواضح الدلالة، كى يأخذ مكانه من الحياة، هذا المصطلح هو تعبير «الغرب الإسلامى»، والذى أود قبل أى شىء أن أدافع عنه، وأن أبرز استخدامه الذى شاع منذ عهد قريب، وهو ينصرف إلى مجموعة جغرافية بالغة التناسق فيما بينها، وتقع على جانبى غربى البحر المتوسط، وتمتد حتى سواحل الأطلنطى وتشمل شمال إفريقيا وشبه جزيرة إيبريا.

مثل هذا التعبير يتميز بأنه يثير فى شىء من الوضوح، حتى فى سمع من هم على حظ متواضع من الثقافة، جملة أشياء متناسقة نسبيا، خليطا يمكن أن نميز بين عناصره الجوهرية فى سهولة تامة. فالغرب الإسلامى مساحة من العالم القديم توطد فيها الإسلام، حاملا معه بناءه الاجتماعى إلى أهلها، ومثله الخلقية، والثقافة التى

يمثلها، ولكن هذه الأرض فى الوقت نفسه نائية، وبعيدة عن مركز الإسلام بالنسبة إلى غيرها من المناطق التى شهدت ظهوره، وطلائع وثبته الرائعة التى بلغها فيما بعد.

كان الناس من قبل، وبعضهم لما يزل حتى اليوم، يطلقون عليه اسم «المغرب»، وهو تعبير يبدو للوهلة الأولى أنه يماثل تماما قولنا «الغرب الإسلامى» ويفضله فى أنه لم ينتظر حتى عصرنا هذا ليدخل دائرة المصطلحات الجغرافية عند العرب. ولكن، هل نحن فى حاجة لأن نذكر أن اسم «المغرب»، وكان فيما يبدو يعنى بلاد البربر وإسبانيا فى الأيام الأولى، إنكمش معناه سريعا فلم يعد يشمل غير غرب شمال إفريقيا، ولم تعد تونس الحالية، أو أفريقية كما تعرف فى المصادر العربية القديمة، وشبه جزيرة إيبريا، أو أندلس العرب، من باب أولى، تدخل فى نطاق مفهومه.

يمكن القول إن هذا مجرد جدل لفظى بحت، لأن شمال إفريقية وإسبانيا ارتبطا، وهو أمر منطقى وطبيعى، بعلاقات سياسية، وصلات ثقافية، يقتضيها وينميها تجاورهما الجغرافى وبخاصة عندما أخذت العقيدة الدينية المشتركة توجه، وحتى توحد، عند الجانبين بعض مطامحهما المشتركة. ولكن ذلك لم يحل دون أن يكون لكل واحد منهما كيانه المنفصل، ونظامه المتميز، وأمراؤه المستقلون به، ويتبادلون العداوة أحيانا مع أمراء البلد الآخر، وله أخيرا مثله الأعلى، ولم يستطع الإسلام أن يجعله مشتركا على الدوام، ويمكن

أن نؤكد أن مثل هذه الأخطار ليست خاطئة كلها، ومع ذلك لا تمثل أيضا الحقيقة الدقيقة بصدق، لأن الغرب يؤلف وحدة فى نطاق العالم الإسلامى، فى جانب من أقصى طرفيه، عالما قائما بذاته، أقرب ما يكون إلى أوربا المسيحية من جانب، وبعيدا معزولا عن الشرق بالمسافات الشاسعة، والعوائق الطبيعية من جانب آخر، ومثل هذه الظروف كثيراً ما كانت شديدة الوطأة على مصائره السياسية، وأكثر من ذلك تركت تأثيراً بالغا فى أوساطه الاجتماعية وفى ثقافته.

ومن الضرورى أن يعيش المرء أعواما طويلة فى بلد كالمغرب، لما يزل يحتفظ بطابع حضارته فى العصر الوسيط كاملا غير منقوص، وأن يقيم فى جنوب إسبانيا زمنا، وأن يكون شغوفا باستنطاق الآثار العربية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة خلال الجو الرقيق المثير الذى تسبح فيه، ليشعر حقا أن بين ما كان وانتهى، وبين ما بقى ولم يذهب، ليس مجرد مظهر بسيط غامض من مظاهر القرابة بينهما. وقبل كل شيء، يجب ألا يتنكر للحدس الفجائى الذى يثيره فى ذهنه أحياناً التعامل العميق والمستمر مع النصوص الأصلية، وألا يبعد عند الرؤى العابرة التى ترتسم إجمالا، إثر اتصاله بالوثائق التى ينشدها، وتشف فيما بعد، على نحو دقيق، فى الصور الحاضرة والعائلية.

حينئذ نشعر، بدءاً فى غموض، أن هذه القرابة ليست

عارضة، ولا يمكن أن تكون كذلك، وسرعان ما تتزاحم وجوه الشبه وتتحدذ، وتفرض نفسها. ويبدو الغرب الإسلامى فى جانبيه الإفريقى والأوربى شيئا فشيئا، عبر العصر الوسيط، من خلال ألوانه الحقيقية، بريئا من الصور الغبراء التى كومها على تخومه .مؤلفو المدونات الصفراء، والذين أوقفوا فضولهم على الحوادث المختلفة المتصلة بالأسر الحاكمة وحدها.

وسنكتشف حينئذ أنه على الرغم من صروف الدهر أثناء حروب الاسترداد المسيحية ظلت العاصمة الثقافية لهذا الغرب فى إسبانيا دون انقطاع : فى قرطبة أولا، ثم عواصم مقاطعات أخرى متعددة فيما بعد، وفى غرناطة أخيراً.

وندرك أن أرض الأندلس، مهما كان مركزها السياسى، لم تفقد أبدا منزلتها كزعيمة للفكر، واحتفظت بكل إشعاعها، حتى بعد أن خضعت فى عهدها الإسلامى للحكم الإفريقى من المرابطين والموحدين، وسرعان ما فتنت سادتها الجدد فاستسلموا لسحرها، وجعلوا منها محل إقامتهم المفضلة. وفيما بعد سيحدث الشىء نفسه لأولئك الغزاة الجفاة من القشتاليين، وستكون لهم، كما كانت لأولئك من قبل، ما كانته أثينا بالنسبة لروما عندما غدت مقاطعة من الإمبراطورية الرومانية، ولنتذكر كلمات الشاعر اللاتينى، ونأتى عليها هنا : «إن اليونان المغلوبة غزت قاهرها الضارى».

ولكن مصطلح «الغرب الإسلامى»، لا يجد من يرفضون

مفهومه الخاص فحسب، وإنما له خصوم آخرون كثيرون فى أوربا، وحتى بين المتخصصين اللامعين فى دراسات العصور الوسطى، يرون أن شمال إفريقيا وإسبانيا كليهما، كل واحدة من جانبها، لا تشكلان غير امتدادات بعيدة، وظلال شاحبة، لمشرق الإسلام. هذا المشرق الذى يجب أن نعترف بأنهم أنفسهم يجهلونه، وأساءوا فهمه كثيرا، ولم يقدروا أبدا فى إنصاف الدور الراجح الذى لعبه فى اقتصاد البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الوسيط، وبخاصة منذ انهيار العالم القديم حتى العصر الذى شهد غروب القرون الوسطى، وتفتحت عيونه على بشائر النزعة الإنسانية الناشئة. وهذا الزعم الباطل نفسه، ولما يذهب تماما، جعل كثيرا من المؤرخين يُقدرون بيزنطة «مقارنة بذكريات روما الظافرة»[1]، ودفع بهم ألا يروا فى المغرب والأندلس، خلال العصر الوسيط، سوى امتداد هزيل، وانحطاط سياسى عميق، لعصر الإسلام الذهبى فى المشرق، ومآثره فى سورية والعراق ومصر ثابتة ومدوّنة. ولم يخطر ببال هؤلاء المؤرخين ولو للحظة واحدة، وبخاصة فيما يتصل بإسبانيا، أن يحاولوا إظهار القدر الهائل الذى اضطلعت به فى تطوير العالم الأوربى إبتداء من القرن الحادى عشر الميلادى، وفى تحسين بعض جوانب الحياة المادية، خصوصا ودون أى شك فيما فرضته من الإحساس شيئا فشيئا بطابع جمالى جديد للحياة، وكان يسيطر عليها حتى ذلك الحين، تحت رهبة الخوف من المجهول، صوفية تنضح تشاؤماً جافيًا.

وكل هذا يجلعنا نلحظ أن كل ما يوحى به تعبير «**الغرب الإسلامى**» فى حد ذاته، وما يحتاجه من تصرف، شأنه فى ذلك شأن الاعتبارات الأولى التى نحاول جاهدين أن نبرهن عليها. ولا يمكن الشك بأن الحضارة التى ازدهرت فيه خلال القرن العاشر يمكن أن نطلق عليها اسم «**الحضارة العربية الإسبانية**» لأنها نشأت وليدة تأثرات مختلفة فى شبه جزيرة إيبريا نفسها، وفاضت بكاملها، وامتدت على نطاق واسع إلى المغرب وليس، كما يظن أحيانا فى جانب واحد فحسب من أجمل جوانبها، وهو الفن المسمى بالفن الإسبانى العربى، والعناصر الرئيسية التى تتألف منها هذه الحضارة العربية الإسبانية تكوّن الخطوط العامة التى تمنحها كل الأصالة فى مختلف جوانبها، ونحاول الآن توضيح هذه الخطوط فى نظرة سريعة ومجملة.

غير أن هذه الدراسة تبقى ناقصة إذا لم تصحبها عمليات سبر جانبية لنعرف أولا ما التأثيرات المباشرة، قلّت أم كثرت، التى مارسها المشرق من خلال الإسلام فى العالم الغربى، وما التأثيرات التى باشرها الغرب، وهى أضيق نطاقا دون أدنى شك، فى المشرق، ومن جانب آخر، ما الفهم المتبادل بين الإسلام الإسبانى والمسيحية فى العصور الوسطى؟ تلك المشاكل الخاصة نطرحها بإيجاز، ونحاول أن نجد بعض عناصر حلها.

من الصعب دائما، وقد يكون تهورا، أن نتصدى لدراسة هذه

الحضارة العربية الإسبانية دون أن ننظر إليها أولا، ولو من خلال بعض الأمثلة البسيطة؛ فى نطاق إطارها الطبيعى ذاته، ودون أن نشير ولو بصورة موجزة إلى تتابع الظروف السياسية التى سهلت نشوءها وازدهارها. وبدون هذا قد نجازف بألّا نفهم بوضوح ماذا كان مدى انتشارها، أولا فى داخل حدود شبه الجزيرة نفسها، وفيما بعد فى شمال أفريقيا، وقد يحدث لنا الشىء نفسه فيما يتصل بالتأثيرات المختلفة التى انحدرت إليها من المشرق، وأخيراً الضغط غير المباشر الذى مارسته بدورها على الغرب الأوربى.

* * *

يكاد يكون من المتفق عليه عند الحديث عن شبه الجزيرة الكبرى، والتى تضم إسبانيا والبرتغال حاليا، بأنها ذات جغرافية معقدة، ولعل بلداً آخر لا يكوّن كتلة كهذه فى وضوح حدودها الطبيعية، ولكن أيضا ما من بلد آخر يفوقها فيما تقدم من تناقضات داخلية، سواء فى شكلها الطبيعى أو فى مناخها، أو حتى فى خصوبة أرضها، ومن جانب آخر، ولقد أشير إلى هذا مراراً، يتجلى وجه الشبه العميق بين جنوب إسبانيا وشمال المغرب فى تكوينهما الأرضى، ولا يفصل بينهما إلا حاجز مائى عميق، ولكنه ضيق الاتساع، وعندما يجتاز المرء هذا الحاجز، وأعنى به مضيق جبل طارق، من أى جانبيه شاء، تأخذه الدهشة بما يرى من تشابه يكاد يكون تاما بين البلدين. فهناك كما هنا سلاسل من الجبال

العالية تغوص آخر ثناياها فى البحر المتوسط، ونجد فى كلا الجانبين المزروعات والخضروات والبساتين والفواكه وحقول الزيتون، وبعيداً، فيما وراء هذه الجبال، يزداد التشابه وضوحا، إذا جاز لنا القول، فوديان الأندلس الغنية لها ما يقابلها فى سهول المغرب الخضراء، وإذا توغلنا أبعد من هذا فسوف نلتقى فى شبه الجزيرة بمرتفعات لامنتشة وقشتالة الجديدة، ولها ما يقابلها فى مرتفعات المغرب الوسطى، وهى ملامح قوية الشبه فيما بينها، ويطلق عليها التقنيون الإسبان الاسم نفسه، وهو meseta بمعنى نجد أو هضبة. وماذا عن أوجه التشابه بين جوانب الحياة فى المدن؟ يكفى أن نذكر أنه لا توجد مدينة فى المغرب يسكنها الموريسكيون المسلمون، وهم الذين طردوا من إسبانيا، أو يشغلون حيا منها، إلا واحتفظت فى شغف بالغ بطابع الحياة فى المدن الأندلسية.

أما الدخول إلى شبه جزيرة إيبريا من الشمال فيتم غالبا عبر أحد جانبى جبال البرانس، ومنذ اللحظة التى يبدأ فيها السير نحو الجنوب، يُوخذ المرء بالتناقض بين المناظر الطبيعية، تناقض يبلغ حد التنافر أحياناً، وقليلا قليلا تتلاشى سهول قشتالة المتقشفة العظيمة، وشيئاً فشيئاً تكسو الابتسامة وجه إسبانيا الشمالية العبوس، ابتسامة تصبح ضحكة عريضة حين نبلغ الأندلس، أرض المسلمين المفضلة، وعاشوا فيها ثمانية قرون. والحق أن هذه

المشاعر لم تغمرنى شخصيًّا عندما وطئت أرض إسبانيا للمرة الأولى، دخلت إليها من أقصاها الجنوبى، بعد أن أبحرت من المغرب مباشرة، أى من بلد محافظ بقوة، ولا يزال يحتفظ بغيرة شديدة على الإسلام، ومع ذلك لم يداخلنى الشعور أبداً ساعتها أننى انتقلت إلى عالم مختلف. فالوديان العميقة، والضياع المعلّقة فى سفوح الجبال العالية، والمناخ، ومشاهد الشارع فى المدن الصغيرة، وحتى أوضاع الناس، وكل ذلك يتشابه على نحو مدهش، ولولا الملابس التى يرتديها الأندلسيون الآن وطريقتهم فى الحديث، لأصبح شعور المرء بأنه لم يعبر غير ممرّ مائى، وأنهّ لمّا يزل فى أفريقيا، وهماً كاملا. إننا نفهم بسهولة، فى إطار طبيعى يقدم ألوانا عظيمة من المشابهات، أن حضارة مشتركة سوف تتوافر لها كل الشروط لكى تقوم بدورها.

وفضلا عن ذلك وجد شمال أفريقيا نفسه مدعوًّا، منذ أن فتح العرب إسبانيا، لكى يلعب دوراً بالغ الأهمية فى إعادة تعمير شبه الجزيرة بالسكان، لأن العلاقات التاريخية بين البلدين خلال العصر الإسلامى تعود إلى أيام الإسلام الأولى، وبدأت منذ نهاية القرن الأول للهجرة. ولقد كان بربر المغرب هم الذين تولوا عملية الفتح أولا، وتم ذلك لحساب المشرق الإسلامى، ومنذ اللحظات الأولى بدأ الأندلس يستقبل أفواجاً عديدة من العرب الخلّص، ولكنه فى الوقت نفسه استقبل أعداداً أكثر من الأفارقة

المسلمين. ولم يلبث أولئك وهؤلاء أن تمازجوا مع السكان الأصليين[٢]، باستثناء بعض القرى الصغيرة المنعزلة فى الجبال، واستعصى سكانها على التحوّل والامتزاج زمناً طويلاً.

وقد شكلّ الوافدون من العرب نواة الأرستقراطية والبرجوازية فى المدن، وسرعان ما تلقوا إمدادات بالغة الأهمية من المسلمين الجدد، أى من سكان شبه الجزيرة الأصليين الذين تزايد دخولهم فى الإسلام، دين الفاتحين، بمحض إرادتهم فى معظم الحالات، هروباً من الجزية، أو رغبة فى حياة مادية أفضل، ونتج عن ذلك، وبسبب التزاوج بين الجانبين، أن ازدادت الصلات وثوقاً وتماسكاً على مرّ الزمن بين المسلمين القدامى والمسلمين الجدد. ولقد، أشرت فى مؤلف صدر لى من قريب جدًّا، إلى أن عرب الأندلس الذين كانوا يزهون فخراً فى القرون الأولى، التى أعقبت الفتح، بأصولهم العربية فى شبه جزيرة العرب أو الشام، يتدفق عبر عروقهم جميعاً قدر غير قليل من الدم الإسبانى، وخارج دائرة الشك الآن أن عصر خلافة قرطبة شهد تمازجاً عنصرياً هاماً، فى المدن على الأقل، بين العرب الخلّص والبربر والمولدين[٣].

ولدينا الفرصة عندما ندرس التأثيرات المختلفة التى سيؤدى تشابكها إلى مولد حضارة عربية إسبانية أصيلة، أن نحدد الدور الذى اضطلع به عرب المشرق الذين هاجروا إلى أسبانيا، والدور الموازى له، وقام به المولدون من السكان الأصليين، وبخاصة فى

الجانب الاقتصادى من هذه الحضارة، غير أننا سنقتصر الآن على إبراز النتائج الخصبة التى أدى إليها التمازج العنصرى الذى أشرنا إليه من قريب. فمنذ نهاية القرن الثالث الهجرى تقريباً، أو العقد الأول من القرن الذى تلاه فى أبعد الأحوال، كيّفت مجموعة من الشعب الإسبانى حياتها مع موطنها الجديد، وأصبحت تكوّن نواة بالغة الأهمية فى نطاق شعب إسبانيا الإسلامية. وأخذت هذه النواة تتزايد باستمرار، سواء من توالى الدخول فى الدين الجديد، أو عن طريق موجات كبيرة من المهاجرين، وامتدت لزمن لا بأس به، وجذبت إلى شبه الجزيرة أولئك الراغبين فى ترك أوطانهم، طواعية أو مكرهين.

هذا الشعب الأندلسى المسلم بدأ عفويًّا يحس بأصالته الذاتية والواقعية فى مطامحه السياسية، وأشد من ذلك وأقوى فى حياته الثقافية. ومع ذلك لم يلبث المتعلقون بالإسلام وشريعته، ومثله الدينى الأعلى، تعلقاً ودوداً وشديداً، أن تميزّوا على نحو واضح، فى أهم مظاهر حياتهم اليومية، ونماذج أزيائهم، وطريقة ارتدائها، وفى مهاراتهم الحرفية والزراعية، لكى يبدو سريعاً أمام أنظار بقية العالم الإسلامى، لا كغرباء عنه، وإنما على الأقل كأقارب بعيدين، كأشقاء باعد بينهم تراخى الروابط العائلية، وإقامتهم النائية.

وقد ساعدت الظروف السياسية الوقتية على هذا النوع من

الانفصال المعنوى، ومضى يكبر مع الزمن شيئاً فشيئاً، عندما تهاوت أول إمبراطورية عربية فى المشرق، وأدى ذلك إلى انفصال إسبانيا الإسلامية عنها، واستقلالها عن سادتها البعيدين، وقدمت نفسها إلى واحد من أحفاد الأسرة التى انتزُعَتْ منها الخلافة، وأقامت لنفسها منذ ذلك الوقت أسرة حاكمة خاصة بها، واستقلت بنفسها عن أفريقية وآسيا معاً.

* * *

لم يكن تاريخ إسبانيا الإسلامية فى الواقع حتى نهاية القرن الثامن الميلادى، أقل غموضاً من تاريخ بلاد البربر فى الغرب، فهنا وهناك ولاة من العرب أنفسهم، مهمتهم أن يعملوا، أو يحاولون أن يعملوا، على بث احترام سلطة رئيس الجماعة الذى يقيم فى دمشق، وما لبث أن أصبح مجرّد سلطة اسمية فى وقت قصير. ولم يكن الغرب الإسلامى يشكّل فى ذلك غير مجموعة من المقاطعات فى إمبراطورية مترامية الأطراف، لم يطل بها الأمر حتى تفكّكت أوصالها، وتحوّلت إلى مجموعة من الإمارات المستقلة، وسرعان ما أتيحت الفرصة المناسبة أمام مؤسسى هذه الممالك، عندما أتى ردّ الفعل العباسى على البناء الأموى، ومالت سوريا ودمشق فى موقفهما الراجح إلى جانب العراق وبغداد.

صحب هذا التغيير فى نظام الحكم اضطرابات عديدة وعنيفة

بالضرورة، وارتحل عن المشرق كثيرون من العرب الساخطين والمتذمرين، وكبار ذوى المراتب السابقة، وممن فقدوا امتيازاتهم وأعطياتهم، وكل هؤلاء جذبهم الغرب إليه. ومن بينهم أمير من البيت المروانى نفسه، رحل يبحث عن حظه فى أقصى طرف من العالم الإسلامى غرباً، وكان المغرب حينئذ مقراً جميلا ومرغوباً، غير أن الإسلام أصيب فيه بنكسة عابرة، ذلك أن قبائله ما كادت تعتنق الإسلام حتى بدأت تعمل بقوة فى الدعوة إلى مبادئ الخوارج، واستطاعت أن تسترد استقلالها القديم بقوة السلاح.

كان الأموى القادم عبد الرحمن بن معاوية، وحمل لقب الداخل فيما بعد، حفيد هشام بن عبد الملك، ولحظ أن المجال فى شمال أفريقيا غير ممهد له، وأن الريح غير مواتية هناك، فولىّ وجهه شطر إسبانيا، وما لبث أن استولى عليها، وأطاح بحكم الوالى العربى الذى كان يديرها من قرطبة كأمير مستقل، ولو أن سلطته كانت واهية، وبالغة الضعف، وأقام على أنقاضه دولة الأمويين فى إسبانيا، وحققت مع الزمن مجدًا تليداً، وإن شئت الدقة، أعاد فى أقصى نقطة من الغرب الإسلامى بناء دولة أجداده التى ازدهرت فى دمشق، ومنذ عام ١٣٨ هـ - ٧٥٦م أصبح سيد قرطبة، وجعل منها عاصمته، ووقف عليها جهده، لكى تأخذ طابع العاصمة المشرقية التى طرد منها، فعل ذلك ولما يمض غير نصف قرن وسنوات على نزول أوّل دفعة من العرب الفاتحين.

وبهذا بدأت التقاليد السورية تسود فى إسبانيا، وسبق لها أن أخذت طريقها من قبل بقدوم الجند السوريين مع بِشْر بن بَلجْ القشيرى، فى ظروف سوف تتاح لنا الفرصة فيما بعد للحديث عنها.

وبعد ذلك بقليل قدم أيضاً إلى الجانب الإفريقى من مضيق جبل طارق شرقىّ آخر هارب، وهو إدريس بن عبد الله، الذى ينحدر من سلالة الرسول، فهو من أبناء أحفاد الحسن، جاء يبحث عن قدره فابتسم الحظ له، وسيساعد ابنه من بعده إدريس الثانى، والذى قرر فى عام ١٩٢ هـ-٨٠٨م أن يزيد فى امتداد مدينة فاس، والتى أسسها والده عام ١٧٣ هـ- ٧٨٩م، وأعدها لتصبح عاصمة مملكته، وأسكنها عناصر مدنية مختلفة، جاءتها بعد أن تخلّت مكرهة عن مساكنها الخاصة بها فى المدن الأخرى، نتيجة بعض الظروف السياسية الخاصة، وكان أهل القيروان أول مَن وصل مِن إفريقية، أو تونس فى لغة الجغرافية الحديثة، جاءوا نشوى بمؤثرات مشرقية واضحة، وتلاهم مباشرة أهل الربض من قرطبة، أولئك الذين أجلاهم الأمير الأموى الحكم الأول عن إسبانيا عام ٢٠٢ هـ-٨١٧م إثر ثورة قاموا بها، فاستقر بعضهم فى مدينة فاس، بينما آثر آخرون من رفاقهم التعساء، والأبعد همّة، أن يواصلوا سيرهم إلى المشرق بحثا عن المغامرة بعيداً، فحطوا رحالهم فى مدينة الإسكندرية، واستولوا عليها على حين

غفلة من أهلها، ثم أجلاهم الخليفة المأمون عنها، فانتهى بهم المطاف إلى الإقامة فى جزيرة كريت، حيث أقلقوا الدولة البيزنطية لسنوات طويلة[٤].

ومع سير الزمن سجّل القرن التاسع الميلادى على امتداده، فى إسبانيا الإسلامية وفى المغرب على السواء، فترة حافلة بكثير من الاضطرابات، وخلاله أنفق أمراء قرطبة كل جهدهم لنشر السلام، وإعادة الأمن والنظام فى دولتهم. ومن جهة، أخرى عرف عصر عبد الرحمن الثانى فترة طويلة من هدنة نسبية، وشهد نشاطًا فكريًا غَذته التأثيرات العباسية غير المباشرة، وستتاح لنا الفرصة لنبرهن على ذلك، وكان على الأمويين أن يواجهوا الثورة الخفية التى بدأت تخفق بها قلوب مواطنيهم، والتفّت حولها الأغلبية من رعاياهم، وقد تخلّ كبار قوّاد الجند من الأرستقراطية العربية عن مسئوليتهم، بينما بسط البربر الذين يقطنون الجبال يد العون، شأنهم فى ذلك شأن العرب الذين يقيمون فى السهول، إلى الحركات الوطنية التى شنها المسلمون الجدد، بمساعدة العناصر المثيرة من جماعات المستعربين.

وكثيرًا ما كان الخطر بالغًا، ووجد أمراء قرطبة أنفسهم وهم يتحركون وسط ظروف بالغة الصعوبة، ويبدا التاريخ السياسى للبلد حينئذ، كل التاريخ، مُهدَّدا بسيطرة المولدين والمسيحيين عليه من جانب، وفى الوقت نفسه تحاصره الأخطار التى يثيرها

أحفاد العرب والبربر الوافدون من جانب آخر. وليس من الضرورى إذن أن نشير إلى أن الثقافة الأندلسية عانت خلال هذه الفترة نفسها من بعض الضعف؛ وهو أمر منطقى، لأنها بالكاد كانت قد تجاوزت سن التكوين والنمو.

غير أن الوضع السياسى أخذ يتبدّل منذ السنوات الأولى للقرن العاشر الميلادى، أو الرابع الهجرى إذا شئت، وسجّل هذا القرن أوج ازدهار الحكم الأموى فى إسبانيا، واقترن باسم أمير عظيم، وهو عبدالرحمن الناصر، وترتبط فترة حكمه الطويلة فى الحوليات والمدوّنات الإسلامية لمؤرخى شبه الجزيرة بالازدهار الرائع فى كل مظاهر الفكر، وفى الوقت نفسه كانت فترة استقرار سياسى، وسلام داخلى، ليس لهما شبيه حتى ذلك التاريخ. وقد انطوى الغرب الإسلامى على نفسه، إذا جاز التعبير، وكان يشمل حينئذ جانباً كبيراً من المغرب يتبع قرطبة مباشرة، فقطع الجسور الواهية التى كانت تربطه نظريًا ببقية العالم الإسلامى.

والقرار الذى اتخذه عبد الرحمن الناصر بألّا يواصل احترام ما يُدعى «برمز الخلافة»[5]، على نحو ما كان يفعل هو شخصيًا على امتداد سنوات سبقت، وما سار عليه أسلافه من قبل، أبلغ شاهد على هذا الانطواء. وهكذا فصل الدولة الأموية الإسبانية عن بقية «دار الإسلام»، والتى كانت كلها تخضع من حيث المبدأ لسلطة الخليفة الروحية، كرئيس للجماعة الإسلامية، ولقد كان

يزعج الأمير العظيم أن يظل اسم الخليفة فى بغداد يذكر من على منابر بلاده فى خطبة الجمعة، دون اسمه هو، ولهذا قرر فى عام ٣١٧هـ - ٩٢٩م أن يحمل الألقاب السامية التى كان يحملها أجداده من قبل فى دمشق قبل قرنين مضيا من الزمان : الخليفة وأمير المؤمنين[٦] . ولم تكن قيمة هذا الملمح حينئذ رمزية فحسب، أو مجرّد خطوة سياسية فقط، وإنما إلى هذا التاريخ نفسه تعود بداية تأصل الحضارة العربية الإسبانية وامتدادها، وكانت حتى هذه اللحظة نشوى بالمؤثرات الشرقية، ثم واصلت سيرها متوهجة متألقة على مر العصور.

كان القرارُ الذى اتخذه خليفة قرطبة الجديد بإعلان استقلاله السياسى، وصدارته الروحية، فى مواجهة بقية العالم الإسلامى، وليد قلق فطن، ومن الضرورى أن نعترف له بهذا، أثاره ظهور الحركة الفاطمية وانتصاراتها الرائعة فى شمال إفريقية، وفى تلك الفترة كان العديد من البلاد الإسلامية يشهد تفجرّ نوع من حُمّيا الانشقاق، ورواج المذاهب السرية الجديدة، وكثيرًا ما كانت تستخدم لدعم الثورات السياسية، وحتى اللحظة التى أتم فيها الفاطميون فتح مصر، وفيها الكثير مما أغراهم بأن ينتقلوا إليها، وأن يتخذوا منها مقرًا نهائيًا لهم، وأصبح عواهل إفريقية الجدد، وسادة كل شمال إفريقيا فى الواقع، وصقلية ووادى النيل، يمثلون خطرًا جسيمًا يتهدد الإمبراطورية الأموية فى إسبانيا عن قرب.

أصبح أمير قرطبة العظيم على رأس إمبراطورية ممتدة الأطراف، مزدهرة وغنية، وآهلة بالسكان، ويغمرها السلام من كل جانب، يمثل فى الغرب تقاليد الإسلام فى أيامه الأولى، والسنة الدينية المستقيمة، فلا بدع إذن أن يهتم بالخطر الفاطمى الذى يتهدّده، وأن يتخذ كل الوسائل الممكنة لتجنبه، وأن يرقب الموقف بعناية، حتى لا يغرق الفاطميون ولاياته بفيض من دعاتهم السريين المهرة، يثيرون القلاقل والانشقاق.

وعندما واجه عبد الرحمن الناصر الموقف، لا بوسائل الأمن العسكرية التى يتطلبها الموقف فحسب، وإنما أيضًا بقراره اتخاذ لقب الخليفة السامى، كان قد خلق من إسبانيا الإسلامية بلدًا جديدًا، وأقام مملكة متينة البنيان، تحررت من آخر ما كان يربطها ببقية العالم الإسلامى، دولة عظمى كان على جيرانها من دول أوربا المسيحية أن يتعاملوا معها ويتفاوضوا، ومن ثمَّ انفتح باب جديد للتحالفات السياسية، والمبادلات الصناعية وأيضًا، وكما هو متوقع، أمام تجارة الأفكار، ولعبة التبادل بين التأثيرات الحضارية.

وكان الحكم الثانى، أو المستنصر، ابن عبد الرحمن الناصر وخلفه، الراعى العظيم لهذا التقليد الثقافى، الذى شجّعه والده من قبل، على نحو ما سنرى فيما بعد، وقد تولّى العرش كبيرًا، ومن ثَمَّ كانت مدة خلافته قصيرة، وكان الدكتاتور المنصور بن أبى

عامر، أو المنصور فحسب، وهو الاسم الذى شَهِر به فى مدوّنات إسبانيا المسيحية، وأغانيها الرقيقة، رجل التوسع الأموى بلا مراء، وأعظم أبطاله فعالية. وفى ظل حكمه الفعلى بلغت قوة إسبانيا العربية ذروة توهجها فى العالم الغربى.

ولمّا تمض بضع سنوات على وفاته، فى مطلع القرن الحادى عشر، وبسبب تدخل القواد البربر والموظفين الصقالبة، فى إدارة شئون الدولة على نحو واضح، اشتعلت الحرب الأهلية فجأة وبعنف لم يسبق له مثيل*، وأتى إعصارها وإلى الأبد على الدعائم القوية للبناء الذى أقامته الأسرة الأموية فى الأندلس.

ومع انتثار عقد الخلافة بدأت تتكوّن فى كل المدن الكبرى، على امتداد شبه الجزيرة، إماراتٌ صغيرة مستقلة، على رأس كل منها أمير، وُعرفت باسم «ملوك الطوائف» وسرعان ما أمسك بعضهم بخناق بعض، والأقوياء منهم يغيرون على أراضى الضعفاء، ويضمونها إلى إمارتهم، أو يخضعونهم لتبعية مُهينة، ذات تكاليف باهظة.

وفى الوقت نفسه بدأت حركة «الاسترداد» المسيحية تتقدم بطيئة، ولكن فى عناد وإصرار، وقد عرف أواخر الأمويين وأوائل

* درست هذه الحرب بإفاضة فى كتابى: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، فى الفصل. «فتنة البربر» ص ١٠٣ - ١٣٤، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢.

العامريين، بما كانوا عليه من قوة، كيف يقفون فى وجهها على امتداد قرن كامل، وأفاد من هذا الوضع المضطرب أمير قشتالى عظيم، وهو ألفونسو السادس، وتوارت أمجاده ظلمًا وراء شهرة قائده المتمرد السِّيد القنبيطور[7]*. لقد عرف ألفونسو كيف يفيد منه كل ما أمكنه، فى مهارة عظيمة وصلابة لا مثيل لها، وفى عام ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥م سقطت فى قبضته مدينة طليطلة، عاصمة القوط القديمة، وأصبحت من ألمع مراكز الحضارة الإسبانية العربية إشعاعا، وباستيلاء ألفونسو السادس عليها عادت، وإلى الأبد، مسيحية من جديد[8].

وعلى النقيض مما يمكن أن يتوقعه المرء، لم تكن الثقافة الأندلسية يومًا أشد إشعاعًا، وأقوى خصوبة، كما كانت عليه فى القرن الحادى عشر الميلادى، وكان حافلا بالاضطرابات السياسية، وهزته حتى أعماقه المنازعات الداخلية، وتقدمُ حركة الاسترداد المسيحية فى إصرار. وأدت النشاطات الفنية والأدبية التى ازدهرت فى العواصم الإقليمية إلى سقوط قرطبة النهائى تقريبًا. وتحوّلت بلاطات الملوك المسلمين فى طليطلة وبطليوس وبلنسية، ودانية، والمرية، وغرناطة، وفى إشبيلية بخاصة إلى

* راجع تاريخ السيد القنبيطور ودوره فى تاريخ الأندلس فى كتابنا: ملحمة السِّيد، دراسة مقارنة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٣، وهى الدراسة الوحيدة لشخصيته فى اللغة العربية فيما أعلم.

منتديات أدبية، حيث يتحلق الشعراء والأدباء، والفنانون والعلماء والفلاسفة والأطباء وعلماء الطبيعيات والإحياء، في ظروف مادية مواتية، وفي رعاية أمراء تميّزوا بالثقافة، وأشربوا حب العلم والأدب، ويجدون في صحبة من أشرنا إليه خير عزاء عن مشاغلهم اليومية في إدارة شئون الدولة. لقد كان حقًّا عصر انحطاط سياسي عميق، ولكن صحبته في الوقت نفسه حركة تجديدية واسعة لا مثيل لها، شملت كل إبداع الفكر، ولدينا أمثلة أخرى كثيرة، سواء في داخل العالم الإسلامي أو خارجه.

كان لخبر سقوط طليطلة في يد المسيحيين وقع الصاعقة في المحافل الأدبية التي تحلقت حول عروش أمراء الطوائف، وكان نذير شئوم أرعب الأمراء المسلمين، وقد بددوا قواهم في الصراع الدموي مع بعضهم البعض، وأتوا على قوتهم الحربية، وأثقلوا كاهل رعاياهم بالمغارم والضرائب الفادحة، وفجأة بدا لهم المغرب في ثوب المنقذ الذي يضرعون إليه، وما أكثر ما نظروا إليه من عل، بلدًا ثانويًّا متخلّفا، يجيء بعدهم في مضمار الحضارة، وليست له من فائدة إلا أنه يمدهم بالجنود المرتزقة التي تحتاجها جيوشهم. وكان المرابطون، وهم صحراويون قادمون من المناطق القاحلة في موريتانيا، وقد أكملوا من قريب إنشاء إمبراطوريتهم، التي حملت اسمهم، وأكمل أميرهم يوسف بن تاشفين في تلك الأيام فتح المغرب وتنظيمه من جديد. وقد اضطر الأندلس،

طائعًا أوكارها، ومشمئزا فى كل الأحوال واقعًا، أن يتوجه إلى هذا الأمير متوسلا يطلب العون، لكى يدفع الخطر المسيحى القادم، وبدا داهمًا كما لم يكنه يوما.

ويمكن القول إن هذا العمل كان ثأرًا سياسيا من إفريقية المسلمة أخذت به من إسبانيا الإسلامية، وفى الوقت نفسه سجّل فى مجال الحضارة بداية امتداد جديد للثقافة الأندلسية، وكانت فى قمة توهجها، على نحو لم تشهده من قبل، فبسطت ظلها على كل المغرب، وقد قبل يوسف بن تاشفين أن يعبر مضيق جبل طارق إلى إسبانيا، ليعاون الأمراء المسلمين فى محنتهم، وأوقع بالقوات المسيحية هزيمة ساحقة فى موقعة الزلاقة، فى ٢٥ من أكتوبر عام ١٠٨٦م = ١٢ من رجب ٤٧٩ هـ، أى بعد سقوط مدينة طليطلة فى يد ألفونسو بما يقرب من عام، غير أنه من جانب آخر لم يعرف كيف يستغل هذا النصر فى الحال، ليوجه الضربة الحاسمة إلى المسيحية نهائيًا.

كان لانتصار المسلمين فى هذه الموقعة رد فعل هائل، تردد صداه فى أنحاء شبه الجزيرة، وتبادل أمراء الطوائف التهانى فيما بينهم، وفاضت قرائح الشعراء بقصائد المديح، وعاد المنقذ المغربى إلى دياره مظفرًا. وبعد شهور قليلة من رحيله شن المسيحيون هجومًا جديدًا، اضطرت معه إسبانيا الإسلامية إلى دعوة المرابطين من جديد، وعاد يوسف بن تاشفين فعلا، وفى

هذه المرة أزاح كل هؤلاء الأمراء الأندلسيين الصغار عن عروشهم وضم إماراتهم إلى إمبراطوريته، وكان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية الشاعر أول من أزيح عن عرشه، وأمضى بقية حياته فى المنفى جنوبى مراكش، حزينًا وبائسًا. وأصبحت الإمبراطورية القرطبية القديمة ولاية جديدة فى إمبراطورية المرابطين. ومنذ ذلك الوقت، وحتى نهاية القرن الحادى عشر، سقطت الأندلس سياسيًّا، ولم تعد غير جزء من دولة الإسلام الكبرى، التى شملت الغرب كله، ولم تعد عاصمته قرطبة أو إشبيلية، وإنما فى مدينة مراكش.

وقد شهد حكم الأمير المرابطى الثانى، على بن يوسف بن تاشفين، أَسْبَنَة الإمبراطورية المغربية بقوة وعلى مدى واسع، وربما أكثر مما كان عليه الأمر فى عهد والده، وأعاد هذا الأمير المنحدر من أم أندلسية تقليد الجهاد ضد الكفار، والذى استخدم بنجاح كبير مع نهاية القرن الحادى عشر فى شِبْه الجزيرة الإيبرية، وأدَّى مجرَّد ظهور قوات المرابطين على الحدود الإسلامية إلى ثقة السكان بأنفسهم، وأعطاهم لونًا من الأطمئنان لم يعرفوه من قبل.

وخلال مرحلة السلام هذه عاد الأندلس ثانية يستمتع بالحياة ويهتم بالحفاظ على هيبته وتأثيره الثقافى، لا فوق أرضه فحسب، وإنما فى بقية مقاطعات سادته الجدد، ويومها عبر مضيق جبل طارق إلى المغرب كثيرون من الإسبانيين، واتخذوا مقامهم بجوار

أمير المسلمين، وجعلوا من البلاط البربرى الصغير فى مدينة مراكش مركزًا أدبيًا مرموقًا، وموطنًا علميًا مشرقًا، جديرًا بأن يقارن بما كان عليه البلاط الأموى المتوهج فى قرطبة العاصمة وفى عواصم الأقاليم فى شبه الجزيرة، خلال أيام خلت، ولم يكن أمير المرابطين يفارق، ولا للحظة واحدة، حاشيته من الكتّاب والفقهاء الأندلسيين، وأصبحوا سريعًا أكثر مستشاريه السياسيين نفوذًا. وكان أولئك وهؤلاء دائمًا، وعلى الرغم من بُعدهم عن وطنهم، روادًا متحمسين، ودعاة نشطين للثقافة العربية الإسبانية التى ائتمنوا عليها، وكانوا خير من يمثلها.

وسرعان ما غطت هذا المشهد إظلالة قاتمة، ذلك أن الفقهاء الإسبان فى بلاط المرابطين أشركوا الأمير معهم فى تمسكهم التقليدى بمذهبهم الفقهى، وقد جمد كثيرًا على حين كان الإسلام فى المشرق ساعتها يتطور على نحو ملحوظ، متجاوزًا حرفية النصوص، لا روحها، فيما يتصل بالعقيدة، وحيث نلتقى بمفكر عظيم كالإمام الغزالى لا يتردد فى أن يسمى أهم مؤلفاته «إحياء علوم الدين»، وأدت محاربة هذه الاتجاهات إلى نشأة وانتصار حركة الموحدين فى وقت سريع، وقامت فى أساسها على الدعوة إلى الإصلاح الدينى والخلقى، وإنْ كانت تهدف مباشرة إلى الدفاع عن خطط وغايات ذات طابع سياسى.

ولم تقف إسبانيا الإسلامية موقف اللامبالاة من هذه الأحداث

التى أشاعت فيها إحساسًا عابرًا بالاستقلال، وأدت إلى سقوط المرابطين وقيام حكم الموحدين الجديد، ولم يكن هذا فى الحقيقة بالنسبة لها، غير مجرد الانتقال من نظام إلى نظام، فقد كان سادة الأندلس الجدد من الأفارقة أيضًا، وقد تأسبنوا على نحو سريع للغاية، شأنهم فى ذلك شأن نظام المرابطين الذى سبقهم وأسقطوه وقاموا على أنقاضه.

وسجل الموحدون كالمرابطين من قبل، مآثر انتصاراتهم فى إسبانيا الإسلامية، وأخضعوها دون عناء كبير، وبسطوا عليها مذهبهم فى التشريع، وطريقتهم الخاصة فى الحكم، ولكن حركة «الاسترداد» المسيحية كانت تتقدم على نحو محسوس حينئذ فى جنوب شبه الجزيرة؛ بفضل الجهود الموحدة التى بذلها كل من ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وألفونسو السابع ملك أرجون، ولكن جيوش المسلمين سجلت فى يوم الأربعاء ١٨ من يولية عام ١١٩٥م = ٩ من شعبان عام ٥٩١هـ انتصارًا باهرًا فى معركة الأَرَك Alarcos وكان هذا آخر انتصار مهم حققه الإسلام فى معركته مع المسيحية على بطحاء شبه الجزيرة، وبعد ذلك بسبعة عشر عامًا؛ أى فى عام ١٢١٢م=٦٠٩هـ؛ ثأر المسيحيون لهزيمتهم فى وقعة العقاب، أو Las Navas de Tolosa كما تسميها المصادر المسيحية، وكانت هذه بداية سلسلة من الانتكاسات الإسلامية القاسية.

كان الموحدون كأسلافهم المرابطين، إن لم يتفوقوا عليهم، بناة عظامًا فى إسبانيا وفى المغرب على السواء، ومدينتا مراكش والرباط من صنعهما، فى جانب منهما، وفى إشبيلية، مدينتهم الأندلسية المفضلة، تركوا وراءهم من روائع الآثار «الخيرالدا» والبرج الذهبى. وكل آثارهم ثابتة الدعائم، توحى بالجلال، وشيدت على نحو رائع متناسق، عابسة وعارية من الزخارف، وخلت من العبارات التى تطرى الأمير، أو الأمراء عادة، ولم تسمح من النقوش إلا بآيات قرآنية مناسبة تمتد عرضا على شكل أفاريز[١٠]. وهذه الآثار هنا أو هناك من عمل مهندسين معماريين من الإسبان المسلمين، ولدينا الدليل على ذلك. وهى أيضًا دليل رائع، وخالد على مر القرون، على تأسْبُن الغرب الإسلامى فى العصر الوسيط، وعلى مركز الصدارة الذى عرفت الثقافة الأندلسية كيف تحتفظ به فى كل الأوقات.

ولم يدم تألق الموحدين طويلا بعد حكم الأمير عبد المؤمن ابن يعقوب، ويعقوب المنصور، وأيامهما المجيدة، وبعد وفاة العاهل الأخير منهما لم تجد حركة «الاسترداد» المسيحية فى إسبانيا صعوبات كبيرة تقف فى وجهها، وما لبثت الفتن داخل الأسرة الحاكمة نفسها أن أدت إلى كثير من الإضطرابات الخطيرة على امتداد الإمبراطورية، ولم يتخلف الاندلس، وهو مقاطعة منها فى الثورة عليهم. ومرة أخرى تكونت إمارات إسلامية صغيرة فى

جنوب وشرق شبه الجزيرة فى بلنسية، وفى مرسية، وفى نبلة، على حين كانت القوات المسيحية تواصل انتصاراتها المدوية، انتصارًا وراء آخر.

وفى عام ١٢٣٦م سقطت قرطبة العظيمة عاصمة إسبانيا العربية، وقاعدة الخلافة الأموية الشهيرة، فى يد فرناندو الثالث وبينما ملك قشتالة هذا يُخضع لحكمه مملكة مرسية الإسلامية، ويحاصر إشبيلية، وانتهى الأمر باستسلامها عام ١٢٤٨م = ٦٤٥هـ، كان خايمه الأول، أو جاقمه كما تسميه المصادر العربية القديمة، ملك أرجون يحتل الجزائر الشرقية، أو جزر ا لبليار كما تسميها المصادر الإسبانية، ويستولى على مملكة بلنسية العربية، وتقلص الإسلام فى إسبانيا فلم يبق له من الأرض غير إمارة صغيرة محصورة فى حدود مقاطعة غرناطة، وفيها أسس بنو نصر، وهم ينحدرون من أصول عربية، مملكتهم الصغيرة قريبًا من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.

ورغم أن كل أمراء غرناطة تقريبًا كانوا يتسمون بالضعف، ويتمتعون بسلطة مزعزعة، عرفت المملكة حياة ثقافية مترعة، وبخاصة على امتداد القرن الرابع عشر الميلادى، سواء فى العاصمة غرناطة، أو فى مدينتيها الكبيرتين : مالقة والمرية. وأقبل أمراؤها بحب فى الوقت نفسه على إنشاء روائع الفن الإسبانى العربى الخالدة التى لا مثيل لها، وذكر اسمها مجردًا يثير عظمتها

واضحة فى أعماقنا، وهما الحمراء وجنة العريف*، وتجسم الأدب شعرًا ونثرًا فى شخص ابن الخطيب ومجموعة الأدباء والكتاب الذين أحاطوا به، بينما كان مفكر عظيم آخر، من أصل إسبانى، عبد الرحمن بن خلدون، يتأمل فى المغرب القضايا الاجتماعية التى سيطرحها، ويبحث لها عن حل فى مقدمته الشهيرة.

وسيمضى قرن كامل تقريبًا قبل أن يتمكن الملكان فرناندو وإيزابيل من وضع نهاية سعيدة لحرب «الاسترداد»، وعندما فتحت لهما مدينة غرناطة أبوابها فى ٢ من يناير عام ١٤٩٢م، ورُفعت راية شنت ياقب على قمة الحمراء، لم يكن هذا يعنى أن الحضارة العربية الإسبانية اختفت فورًا، وطواها النسيان، فالحق أنها واصلت سيرها وتأثيرها بعمق، وأكثر من ذلك، فإن هذا التأثير سلك طريقه حتى إلى إسبانيا المسيحية نفسها. واستمر قائمًا حتى طرْد الموريسكيين نهائيًّا من إسبانيا، وحينئذ انتقلت مراكزها إلى شواطىء شمال إفريقية وبخاصة فى المغرب وتونس ولما تزل تحتفظ ببقية من إشعاعاتها حتى يومنا هذا.

ولهذا السبب فإن التقاليد الأندلسية ظلت حية متوهجة حتى الآن فى بعض قرى الساحل التونسى، وفى كل مدن شمال المغرب

---

* لمزيد من المعلومات عن الآثار فى المدن الأندلسية يمكن الرجوع إلى : فون شاك، الفن العربى فى إسبانيا وصقلية، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.

تقريبًا بخاصة، وربما بدت هذه التقاليد أبعد عمقًا وأشد تميزا فى مدينة الرباط، عاصمة المغرب وتقع الآن على شاطىء المحيط الأطلنطى، وسكنها الموريسكيون الذين أخرجوا من ديارهم فى مقاطعة قرطبة من إسبانيا، فى القرن السادس عشر، والجانب الأكبر من الطبقة البرجوازية من سكان مدينة الرباط المسلمين يستخدمون ألقابا إسبانية خالصة، مثل : فرغس Vargas وبلامين Palamino وموزين Moreno، وروى دياث Ruy Diaz، ولو بث Lopez وبيريس Péres، أو منسوبين إلى مدن أندلسية فى شبه الجزيرة، مثل الرندى، نسبة إلى مدينة رندة Ronda، أو الدانى نسبة إلى Denia ومع أن مظهرهم الخارجى فى شوارع المدينة لا يتميز فى شىء عن بقية المغاربة الأصلاء، إلّا أن نمط حياتهم فى داخل بيوتهم بقى محافظًا على طابعه الأندلسى. فزوجاتهم يلقين معاملة طيبة، ويشاركن فى المناقشات العائلية، ولا يعانين من وجود ضرة إلى جانبهن فى أكثر الأحوال تقريبًا، وطعامهن وطريقة إعداده تختلف اختلافًا بينًا عن طريقة إعداده فى بقية أنحاء المغرب، وكثيرًا ما يحتفظن له بأسماء ذات أصول رومانية.

وقد واصل هؤلاء المسلمون احتفاظهم بتقنية بعض المهارات الحرفية، وأظهرت دراسة مصطلحات المهن اليدوية فى المدن المغربية بوضوح أن جانبا مهما منها مصدره التقاليد الإسبانية، سواء ما انحدر منها من أصول رومانية أو موزيسكية[11]. ومهما

يكن فهذه كلها شواهد لا يمكن معها أن نغفل التفكير فى أن بقاء العرب الطويل فى جنوب شبه الجزيرة الإيبرية ترك فيها طابعا بعيد الأثر، وبالطريقة نفسها يمكن القول أن تأثير إسبانيا ما زال يطبع حضارة المدن المغربية، وأسلوب حياة الطبقة البرجوازية من سكانها، فى كثير من جوانبها المختلفة، ولا تزال العلاقات بين إسبانيا وبقية المغرب الإسلامى، والتى امتدت قرابة أكثر من خمسة قرون، تواصل سيرها حية على نحو ما، حتى خارج نطاق التقاليد الفنية والأدبية، ومن الأوفق أن نشير إلى أن الجانب الغربى من شمال إفريقية بدأ يطوّر حاضره، ويحاول أن يتخفف من قديمه على نحو محسوس.

* * *

حاولنا فيما تقدم، خلال نظرة عاجلة، أن نستخلص المراحل الكبرى فى تاريخ الحضارة العربية الإسبانية خلال العصور الوسطى، وأن نضعها فى مكانها من الإطار السياسى والاجتماعى، الذى تكوّن الغرب الإسلامى فى نطاقه شيئًا فشيئًا، ثم يفرض نفسه، وأحس تدريجًا بقوته وحيويته. وربما كان من العبث أن نزحم الآن مجرد صورة مجملة، بخليط من المعلومات نختارها من بين تلك التى نملكها عن النتاج المتواصل للثقافة التى تمثلها هذه الحضارة؛ لأنها ستأخذ بالضرورة شكل قوائم بأسماء المؤلفين وعناوين الكتب، والأفضل من هذا دون أدنى شك ألا نعرض من

بين هذا النتاج إلا لتلك المؤلفات الأبعد أثرًا؛ والأعظم شهرة، فى مجالات الفن والفكر، عندما ندرس تأثير العالم الاسلامى المشرقى فى الثقافة العربية الإسبانية مباشرة، أو عن طريق غير مباشر؛ وأيضًا التأثيرات التى يمكن بدورها أن تكون تلقتها من أوربا المسيحية؛ أو على الأقل تحديد التأثيرات التى مارستها بدورها إسبانيا العربية على العالم الغربى(١٢).

وعلى هذا النحو، فإن الأسماء الكبرى وذكرها لا ينفصل عن دراسة الحضارة، تكون أقل عُزْلةً مما لو جاءت فى عرض جاف للوقائع التاريخية، يمكن أن يهبط سريعًا بحماسة القارئ، ويدفع بالملل إلى أعماقه، فيصرفه عن القراءة وينتهى بها الأمر إلى أن تصبح مجرّد وثائق لا قيمة لها خارج هذا النطاق. ويصبح من الجرأة حينئذ أن نحاول تبيان الصفات الأصلية التى تنطوى عليها هذه الحضارة، دون أن نظهر فى الوقت نفسه ما كانت تمثله التقاليد الكلاسيكية المشرقية العظيمة فى إسبانيا، وظل هذا البلد متمسكا بها فى دقة، وحريصًا عليها بقوة، وانعكست دومًا فى الجانب الأكبر من فروع المعرفة التى تلقاها، والتى غرسها ونماها.

وللسبب نفسه سوف نقتصر الآن أيضًا على دراسة موجزة لآداب الطبقة العالية، التى وعت قيمتها الحقيقية، وبفضل أقلام بعض الذين يمثلونها، ولقرون بعيدة، بلغت الثقافة الأندلسية قمتها. وهذه الآداب العالية لم تحقق ما بلغته من علوّ الشأن على

أرض الغرب الإسلامى فحسب، وإنما أسهمت أيضًا على نحو لم يتوقف بالجهد التأملى الضخم، وكانت حصيلته هذا النتاج الهائل من الأدب العربى على امتداد العصور الوسطى.

وعندما نأخذ فى الاعتبار وجهة النظر الأخيرة هذه بخاصة، من الضرورى أن نشير إلى أنها لم تكن بمنأى عن الاهتمامات التى شغلت بعض المسلمين الإسبان، ممن ينتمون اجتماعيًا وأصولا إلى طبقة المولدين، والذين عانوا فى بعض الأوقات من متاعب التفرقة العرقية، على يد مواطنيهم الأندلسيين الذين ينحدرون من أصول عربية خالصة، ولم يتوقف الأمر بهؤلاء المسلمين الجدد عند الحفاظ على أصولهم فحسب، وإنما كانوا إلى حد ما يفخرون بها، ورأوا أنفسهم أبطال السنة الإسلامية، وبهم وحدهم لاذ التفوّق فى لغة القرآن، ورفضوا أن يعترفوا لممثلى العنصر العربى الأصيل بأية صدارة روحية.

أثارت هذه المشكلة ما عرف باسم «حركة الشعوبية» وتفجرّت على نحو ما حيث امتدت دولة الإسلام، وأخذت أشكالاً متباينة تبعًا لطبيعة المكان، وارتبطت أحيانًا بمطامح ذات طابع سياسى أو دينى، كما نجد عند الخوارج والفرس. وقد أظهر جولد تسيهر فى دراسة جيدة نشرها فى نهاية القرن الماضى، كيف امتدت هذه الحركة الشعوبية حتى بلغت إسبانيا الإسلامية، وكيف تشكلت فيها وتطورت[١٣].

وقد دار حوار أدبى حول قضية الثقافة الأندلسية، فى القرن الحادى عشر الميلادى، بين الأندلسى ابن غرسية وبين العديد من معارضيه، وهم من مواطنيه أنفسهم، وأورد لنا ابن بسام القضية فى كتابه الكبير «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة»*، واحتفظ لنا بنصوص هذه المناظرات، ومن المحتمل أن موضوع «فضائل العرب وفضائل العجم» أتاح الفرصة فى إسبانيا، فى مناسبات أخرى، لحالات شبيهة من الحوار تدور حوله، وكل هذا يبرهن لنا، بقوة فائقة، على أن الحضارة العربية الإسبانية وُلدت فى عمق تناسق سعيد من إضافات الكلاسيكية المشرقية، ومن عناصر جديدة مصدرها البلد نفسه، وعلى الرغم من إطباق العبقرية العربية عليهم، كان بينهم من يزهو بماض مجيد، وبتقاليد ثقافية، شهدتها إسبانيا قبل مجىء الإسلام.

وقد شهد المفكر العظيم ابن حزم سقوط حكم الأسرة الأموية، واتخذت من قرطبة عاصمة لها، ووجد نفسه مدعوًّا خلال حياته العاصفة والخصبة إلى اتخاذ موقف من هذا الصراع، ولو أن موقفه كان على نحو مختلف قليلا، فرد على النقد الذى وجهه كاتب مغربى من القيروان عاب على أهل الاندلس تقصيرهم فى «تخليد أخبار علمائهم، ومآثر فضائلهم، وسير ملوكهم»، ورسم لنا ابن

* انظر دراساتنا لكتاب الذخيرة لابن بسام فى كتابنا : دراسة فى مضادر الأدب، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.

حزم فى رسالته[١٤] بهذه المناسبة صورة مجملة ومفيدة لمختلف ألوان الإبداع الإسبانى العربى فى مختلف مجالات الفكر أتى فيها على ذكر المؤلفات الهامة، وأشار فى فطنة حادة إلى قيمتها، والتى اتخذ منها الأندلسيون حتى أيامه فى مجال المعرفة، دينية أو دنيوية، العمد التى أقاموا عليها بناء الأدب العربى فى شموخه وروعته.

كما رأينا، كان الهجوم الذى صدّه ابن حزم قادما من القيروان، وهى تجربة لا يجب أن تمّر بنا ونحن غافلون، لأن أفريقية، أو تونس الحديثة إذا شئت، ومدنها الكبرى، لم تسع خلال العصور الوسطى إلى توثيق علاقاتها الثقافية المشتركة مع أقصى الغرب الإسلامى أعنى المغرب وإسبانيا، لأنها أقرب إلى المشرق، وإلى مصر بخاصة، وظلت تولى وجهها دائمًا نحو المشرق، وأدارت ظهرها للغرب الإسلامى، وكان عليها ان تنتظر حتى القرن الثانى عشر لتشهد مع قيام ظروف سياسية جديدة، ظهور التقاليد الإسبانية الموحدية فى أرضها، لأول مرة، وتأصلها، ثم تعمقها فيها بعد على يد الحفصيين أولا، وبهجرة أعداد كبيرة من الموريسكيين إلى أرضها أخيرًا، عندما طردهم من شبه جزيرة إيبريا وطنهم فيليب الثالث عام ١٦٠٩.

وفى مثل هذه الحالة، وأعانت عليها الظروف الجغرافية العادية، أصبحت الجزائر بسلاسل جبالها، وامتداد بطاحها بين تونس والمغرب، مهيأة لأن تلعب فى أغلب الأحوال دور المنطقة

الوسيطة فحسب، تتلقى التأثيرات بالتناوب، بعد صقلها، من فاس أو القيروان، والآثار القائمة حتى اليوم على طرفى بلاد البربر كافية، إذا كان ذلك ضروريًا، للبرهنة على هذا التباين العميق، فالمسجد الجامع فى القيروان من جهة، ومساجد قرطبة ومراكش أو فاس من جهة أخرى تظهر، بقدر ما تسمح به المقارنة بين أعمارها المختلفة، وبالرغم مما بين زخارفها من بعض مظاهر القربى، بأن حظها من التشابه الممكن محدود، كما أن المناخ مختلف، والبلد ليس واحدًا.

لقد كانت الأسر الإسلامية المالكة القديمة فى أفريقية تحس دائمًا فى أعماقها بأنها مشرقية تمامًا، مهما كانت أصالة الحضارة التى ساعدت تلك الأسر على ازدهارها، وأظهرت دوما استخفافا كاملا، واحتقارًا ظالمًا، وفى بعض الأحايين غيرة شديدة، لكل ما يأتى من إسبانيا، وحرص بنو الأغلب فى البداية على أن يجعلوا من عاصمتهم مقرًا يطاول ما أقام العباسيون من مؤسسات، وعندما أتى عليهم زحف الفاطميين العارم، الذى لا يقاوم، جدّد هؤلاء التقاليد الثقافية القديمة الخاصة بإفريقية وصقلية، وتوسعوا فيها. وواصل الزيريون هذه التقاليد، والمعزّ من بينهم بخاصة، وهو أعظم ملوك هذه الأسرة، وسوف تتألق فى الوقت نفسه، وبقدر أعظم من البهاء فى مصر، ابتداء من النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى. أما بقية الغرب الإسلامى، المغرب

الأوسط والمغرب الأقصى بخاصة، فكان عليه أن يعانى من التأثيرات الإسبانية، واتخذ تحت ضغط الظروف موقفًا مختلفًا عن موقف أفريقية، ومع ذلك نلحظ فى بعض المناسبات أن المرابطين والموحدين، وهم من البربر، عندما أصبحوا سادة شبه جزيرة إيبريا الإسلامية، إن لم يعملوا على رفض الوصاية الإسبانية عليهم، فقد حاولوا على الأقل أن يضعفوا من شأنها.

ومع مطلع القرن الثالث عشر الميلادى كان صدى الانتصار القريب فى وقعة الأرك يبرر فى الغرب الافتخار بالدفاع عن الوطن على طريقة المفاخر العربية، ونجد شاهدًا عليها فى المحاولة التى جرت بين أديبين أحدهما إفريقى والآخر من أصل قرطبى. وحفظت لنا المدونات نص رسالة المدافع عن الثقافة الاندلسية كاملا[١٥]، وتستحق منا دراسة آنية، قبل أن ننهى هذه السلسة من ملاحظاتنا عن الغرب الإسلامى، والحضارة العربية الإسبانية، لأنها وثيقة ذات أهمية بالغة، وإذا صرفنا النظر عن المبالغات التى انطوت عليها، والمتحيزة أحيانًا، فهى تقدم لنا أدق اللوحات الشاملة المعاصرة، وأفضل ما نملك شمولا عن البناء الاجتماعى، والنشاط الثقافى، فى إسبانيا العربية، وتظهر لنا فى الوقت نفسه أنه حتي فى تلك الفترة، والمتأخرة نسبيًا، كان الأندلس يستشعر تفوقّه بعمق.

يروى المقّرى التلمسانى، صاحب كتاب «نفح الطيب» نقلا

عن ابن سعيد، أن والد هذا أخبره، أنه كان يومًا فى مجلس صاحب سبتة، أبى يحيى بن أبى زكريا، صهر ناصر بنى عبد المؤمن، فجرى بين أبى الوليد الشقندى، وبين أبى يحيى ابن المعلم الطنجى نزاع فى التفضيل بين البرين، وإزاء إصرار ابن المعلم على تأكيد تفضيل شمال إفريقيا سياسيًّا، صاح الشقندى فى وجهه: «لولا الأندلس لم يذكر بر العدوة، ولا سارت عنه فضيلة».

ولكى يضع الحاكم الموحدى لمثل هذا الحوار حدًّا طلب إلى الأديبين أن يعمل كل واحد منها رسالة فى تفضيل بره، وفى هذه الظروف، وهى ثابتة تاريخيًّا دون أدنى شك، ألف الشقندى رسالته، ووصلنا نصها كاملا لحسن الحظ*.

بدأ الكاتب الأندلسى رسالته مذكرًا بمآسر الدولة الأموية فى آسيا وإفريقيا، ويعلن بأن المقارنة بين الوقائع، وهو يعرفها تمامًا، تؤكد بسهولة تلاقيها مع جلائل أعمال الموحدين، وينتصف لأمراء الطوائف، فى القرن الحادى عشر الميلادى، ويعطيهم حقهم، ويقول عنهم أنهم «نفقوا سوق العلوم، وتباروا فى المثوبة على المنظوم والمنثور» ويخص من بينهم بنى عباد ملوك أشبيلية بالمقام

* يوجد فى نفح الطيب للمقرى، ج٣ ص ١٨٦-٢٢٢، طبعة إحسان عباس. (المترجم)

الأول، وهو فيما يرى «كان لهم من الحنو على الأدب، ما لم يقم به بنو حمدان فى حلب»، وصوّر تلك الحقبة الزاهرة، وفيها كان الأمير الشاعر **المعتمد بن عباد** محور حلقة تلتف حوله، وتزهو بطائفة من كبار الشعراء والكتاب، أمثال: ابن زيدون، وابن اللبانة، وابن عمار.

ثم يتساءل: أنىّ للمغرب أن يزهو بفقهاء مثل ابن حبيب، أو بمفكرين مثل ابن حزم، أو ابن رشد، أو ابن باجه، أو بأطباء مثل ابن زُهر، أو بمؤرخين مثل ابن حيان، أو بناثرين مثل ابن خاقان مؤلف كتاب «قلائد العقيان»، أو من مؤلفى كتب المختارات مثل ابن بسام، وأخيرًا بين الملوك مثل المعتمد بن عباد.

هل أنجب شمال أفريقيا شعراء قادرين على تزيين الموضوعات التقليدية، أو الإلهامات المحلية، بالوشى الرقيق، وتلوين الاستعارة بوضعها فى قوالب جديدة، تنطوى على المرأة المحبوبة، وتومئ إليها فى الوقت نفسه، ويصفون نضرة الحدائق، والمياه الجارية، وعذوبة الأسحار، وروعة الأصائل؟

وأنىّ للمغرب أخيرًا القادة الذين يلاحقون العدو المسيحى بلا هوادة، فيملأونه رعبًا، وينتزعون إعجابه؟.

ويمضى الكاتب بعد ذلك يعدد مدنا إسبانية كثيرة وأصبحت منذ القرن الحادى عشر مراكز للثقافة، بعد أن فقدت قرطبة عاصمة

الأمويين منزلتها عاصمة علمية للجميع. يذكر إشبيلية ونهرها وزيتونها، ورياضها، وكيف كانت مصدر إلهام لشعراء كثيرين، وجيان وقلعتها الحصينة، وغرناطة ويسميها دمشق الأندلس، ومالقةُ المدينة التجارية، والتى اشتهرت بنتاجها من التين، وخُصت بطيب الشراب، الحرام منه والحلال، والمرية، وهى ميناء نشط، مزدحم بالسفن التجارية قبل أن تعود إلى موانيها، فى بيزة أو جنوة أو البندقية أو الإسكندرية، محملة بالأقمشة الثمينة، ومرسية مدينة الزهور، وأخيرًا بلنسبة وبحيرتها التى تتلألأ عليها أشعة الشمس المنعكسة فى بهاء وبهجة.

من هنا يمكن أن ندرك لهجة الزهو، وهى طبعًا أقل نشازًا فى النص العربى منها فى أية ترجمة، وهى تلزم خط الدفاع منذ البدء وحتى النهاية، وهو فى الوقت نفسه هجوم عنيف على خصمه، ومن خلال الأسلوب الذى اتخذه الكاتب علينا أن نرد الرسالة إلى حجمها الحقيقى، ومن الضرورى ألا نتجاهل المدى العميق للصيحة العنيفة المحقَّة، التى أدت إلى إنشاء هذه الرسالة : «لولا الأندلس لم يُذكر بر العدوة، ولا سارت عنه فضيلة»!

إلى هذا القدر لحظ الناس فى تلك الأيام النائية، أن هذين البلدين قريبين أحدهما من الآخر كل القرب، وأنهما فى هذه العلاقات الضرورية والدائمة، يصبح أحدهما من جرّاء ضعفه السياسى المتزايد تابعًا للآخر على نحو ما، ولكنه فى مقابل ذلك

حافظ باستمرار على تقاليده الحضارية سليمة، فإذا كان صحيحًا أن إسبانيا الإسلامية تحوّلت إلى مجرد تابع سياسى للمغرب، فمن الحق أيضًا أنها واصلت مع ذلك تطبيع المغرب بثقافتها وعبقريتها، وفى أنفة من يشعر أن السيادة الروحية له.

● الهوامش والتعليقات:

(١) ش. ديهل، بيزنطية : عظمة بيزنطة : عظمة وانحطاط، باريس، ١٩٢٠، ص ١.

(٢) انظر كتابى : إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ٨ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، صفحة ١٩.

(٤) انظر دراستى عن : تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة فى القرن التاسع الميلادى، فى مجلة بيزنطة، المجلد الثانى عشر، بروكسل ١٩٣٧، ص ٨-٩.

(٥) جود فروا - ديمومبين : النظم الإسلامية، باريس، ١٩٢٥، ص ١٣٥-١٣٦.

(٦) انظر كتابى : إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ٤٥ إلى ٤٧.

(٧) انظر مقالى عن : السيد فى التاريخ، فى المجلة، التاريخية، باريس، ١٩٣٧. [وقد ترجم المقال إلى اللغة العربية، ونشر فى كتاب الإسلام فى المغرب والأندلس ص ١٦٥ - ١٩٨، ونشر فى القاهرة عام ١٩٥٦، فى سلسلة الألف كتاب.]

(٨) أنظر مقالى عن : ألفونسو السادس والاستيلاء على طليطلة عام ١٠٨٥، فى مجلة هسبيريس، المجلد الثانى عشر، ١٩٣١، ص ٣٣-٤٩.

[وقد ترجم المقال إلى اللغة العربية ونشر فى كتاب الإسلام فى المغرب والأندلس، من ص ١١٩-١٥٠، ونشر فى القاهرة عام ١٩٥٦، فى سلسلة الألف كتاب].

(٩) انظر مقالى : تأملات عن دولة المرابطين فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى، فى مجلد الاحتفال بمرور خمسين عاماً على تأسيس كلية الآداب فى الجزائر الجزائى ١٩٣٢، ص ٣٠٧، ٣٢٠.

(١٠) انظر: ليفى بروفنسال، نص تاريخى جديد: المسند لابن مرزوق باريس، ١٩٢٥.

(١١) وعلى الخصوص فى قرية تستور، وقد أفرد لها جورج مرسيه دراسة لما تزل تحت الطبع.

(١٢) انظر: ليفى بروفنسال؛ المغاربة وماضيهم، مجلة الفن الحى، باريس ١٩٣٠، ص ٨١٥-٨١٦.

(١٣) جولد تسيهر:

Die Sucubijja unter den Muhammedanern in Spanien, en la Zeitschrift der Deutscheu Morgeniandisehen Gesell 5 éhaft, t. Liii Págs. 601 a 620.

(١٤) توجد فى كتاب نفخ الطيب للمقرى، التلمسانى، وهو مصدر هام جدا، لأنه مجموعة من النقول، احتفظت لنا بصفحات طويلة اختارها المؤلف من كتب أندلسية لما تزل مفقودة حتى اليوم، وترجمته إلى اللغة الانجليزية وقام بها المستشرق الإسبانى بسكوال جيانجوس، يجب أن تستخدم فى حذر شديد، لأنها مليئة بالأخطاء.

[لدراسة نفح الطيب، ومعرفة منهجه وطبعاته، أنظر دراستنا عنه، فى كتابنا: دراسة فى مصادر الأدب، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥].

(١٥) توجد فى كتاب نفح الطيب للمقرى، وقد ترجمها إميليو غرسية غومث إلى اللغة الإسبانية، ونشرها فى مدريد، غرناطة، ١٩٣٤، وترجمها إلى الفرنسية أ. لويا ونشرها فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٢، ١٩٣٦، الصفحات ١٩٣٣-١٨١.

الفصل الثانى

المشرق الإسلامى
والحضارة العربية الإسبانية

اتخذ الأندلس، وقد امتدت وديانه الضاحكة، واستطالت قممه الجرداء القاحلة، فى أقصى الغرب من العالم الإسلامى، بالضرورة وعلى نحو طبيعى، صورةَ مقاطعة لا مركزية، منذ اللحظة التى ضمه فيها العرب إلى أملاكهم، وكان بالتالى، وربما أكثر من أى بلد عربى آخر، ضعيف الاستجابة للاستقرار، أو الحفاظ على علاقات ثقافية نشيطة مع دمشق، عاصمة خلافة بنى أمية أولا، أو مع بغداد من بعد، عاصمة خلافة بنى العباس.

ولما كانت إسبانيا الإسلامية تقع مباشرة على تخوم عالم مختلف فى الشمال فقد اضطر الإسلام إلى أن يكبح جماح اندفاعه إلى الأمام، وإلى جانب أنها تجاور فى الجنوب مكانًا جعلت منه الظروف شيئًا خطرًا، إذ كان من الضرورى للوصول إليها أن يركب المرء السفينة، وأن يعبر المضيق، قبل أن تطأ أقدامه أرضها. وعبور البحر مهما كان ضيقًا مشكلة بالنسبة للعرب، على الأقل فى

القرنين الأول والثانى للهجرة، السابع والثامن الميلاديين، وحلها أصعب من عبور الصحراء الشاسعة، من أدناها إلى أقصاها. ومن هنا كان الحذر الذى يتجلى فى الأمر الذى أصدره الخليفة الوليد بن عبدالملك إلى قائده موسى بن نصير، حين كتب هذا إليه يستأذنه فى الفتح: «خُضْها بالسرايا حتى تختبر شأنها، ولاتغرّر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال».

إلّا أن التقدم الذى حققّه المسلمون سريعاً فى فن الملاحة أتى على دوافع هذه المخاوف الموهومة، وحينئذ بدأ المشرق ينظم جملة من المعلومات الجغرافية، أو المتصلة بالطرق، تتعلق بإسبانيا، ومجرد وجودها يبرهن لنا على أن العلاقات بدأت مبكرة فى مختلف المجالات، وفى حقل الصلات التجارية بخاصة على التأكيد، بين جانبى البحر الأبيض المتوسط.

وكان المشارقة أول من خص إسبانيا الإسلامية بأبحاث جغرافية، ربما كانت مسرفة فى الإيجاز، ونُقلَتْ فى جانب كبير منها عن آخرين؛ إلا أن مصدرها يجعلها هامة بالنسبة لنا على نحو خاص. وأقدمها ما قام به الفارسى ابن خرداذبه؛ وليست قبل عام ٢٣٠ هـ = ٨٤٤م، وبالتأكيد أقل دقة من الأبحاث التى قام بها المؤلفون اللاحقون، أمثال اليعقوبى والمقدسى، ومع ذلك فالصورة التى قدمها لنا الجغرافى ابن حوقل أصدق تمثيلا من غيرها، ولو أنها قدمت لنا موقفاً أقل تعاطفاً مع المقاطعة القديمة لخلفاء المشرق،

وقد أصبحت إمارة مستقلة على رأسها أمير أموى. لقد زار ابن حوقل إسبانيا الإسلامية شخصيًّا، وربما كان يقوم بالتجسس لحساب الفاطميين أو العباسيين، وأقام فى قرطبة بعض الوقت على أيام عبد الرحمن الناصر، أى حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى.

أورد لنا ابن حوقل طائفة من المعلومات الدقيقة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى إسبانيا الإسلامية، مما يعطى وصفه لها قيمة كبيرة، ونجد فى كتابه قائمة لا بأس بها بالمنتجات العديدة التى كان يصدرها الأندلس لا إلى المغرب فحسب، وإنما إلى مصر أيضاً، ومعلومات مفصلة ومثيرة عن تجارة الرقيق، أو الصقالبة بلغة ذلك العصر، فى أوربا، وكان يحملهم إلى إسبانيا الإسلامية تجار تخصصوا فى هذه المهنة، ويقومون بتوزيعهم على الموانئ الرئيسية فى شواطئ الأندلس، وعلى دول شرقى البحر الأبيض المتوسط.

على أن ابن حوقل، ولا يمكن أن نشك فى حياده، لم يكن رأيه فى سكان مملكة قرطبة مرضياً، فهو يعجب من بقائها «على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال». ومع ذلك أخذ بالازدهار الاقتصادى الذى تعيش فيه، وضخامة الثروة التى بين يدى

الناس، وحجم الضرائب الذى يعود على الدولة، ولم ير ما يعدلها إلاّ ثروة الحمدانيين فى حلب، وأخيراً أنصف قرطبة العاصمة فى بهائها فرآها بغداد الثانية، وأعجب بمدينة الزهراء الملكية، وبفخامة وثراء حى الخاصة فى ضاحية الرصافة.

* * *

وهذا الاسم الأخير، أى الرصافة، يثير فى النفس عندما يرن فى السمع، ذكرى مقر الإمارة الشهير فى تدمر Polmyréne والأيام الجميلة للخلافة الأموية فى دمشق، ولم يكن اختيار هذا الاسم الذى أطلق على سلسلة من القصور أقيمت على نفس أبواب قرطبة، وليد الصدفة البحتة أو مجرد اتفاق، وإنما كان عبد الرحمن الداخل نفسه هو الذى أطلقه على إحدى منشآته المفضلة، ليحتفظ على هذا النحو بذكرى الوطن الذى اضطر إلى مغادرته، والعرش الذى أُقْصِىَ عنه بشراسة، فى البلد الذى هاجر إليه، وأسس فيه إمارته، وهى إشارة قوية الدلالة، إن لم تكن ثمة أسباب أخرى غيرها، على وجود «تقاليد سورية» تأصلّت فى إسبانيا، فى اللحظة التى كان فيها أمير أموى قادم من المشرق، يقيم مملكته على أرضها.

والحق أن هذا «التقليد السورى» عبّر عن نفسه على أرض شبه جزيرة إيبريا قبل ذلك بوقت كاف، واجتهد الولاة العرب المختلفون، وكانوا يتبعون الخلافة المشرقية نظريًّا، فى الحفاظ

عليها، واحداً وراء آخر. وعندما عبر الجند المشرقيون إلى إسبانيا بقيادة بلْج بن بِشْر القشيرى، فى ظروف مفاجئة، وانتشروا هنا وهناك بعيداً عن قرطبة نفسها. وبخاصة فى شرق وجنوب الأندلس، واستطاعوا أن يجدوا فى إسبانيا ملاذاً بعد مغامرة ذائعة الصيت، واستقروا فيها عام ١٢٥هـ = ٧٤٢م، أتاحت هذه المناسبة غير المتوقعة للتقاليد السورية أن تنتشر فيما وراء قرطبة أيضاً.

لقد أقطعت الدولةُ هؤلاء الجند، مكافأة على خدماتهم الحربية، أراضى فى أهم الكور المحاذية لشواطئ البحر الأبيض المتوسط، وأعطوها أسماءهم. وفى نطاق هذه الظروف استقر جند الشام حول إلبيرة Elbira، قريباً من غرناطة Granada وجند الأردن فى كورة مالقة Mâlaga، وجند فلسطين فى كورة شذونة Sidona، وجند حمص فى كورة إشبيلية Sevilla، وجند قنسرين فى جيان Jaén، على حين استقر جند مصر فى باجة Beja، فى جنوب البرتغال الآن، وفى كورة مرسية[1]، ومنذ ذلك الحين نمت مدن الأندلس الرئيسية، وانضمت إليها عناصر جديدة من السكان، شكلت لوناً من طبقة حربية، ذات أصول عربية خالصة، تعيش على دخولها الواسعة، من إقطاعاتها الضخمة فى الريف، ويقوم على فلاحتها مزارعةً فلاحون من سكان البلد الأصليين، سواء ظلوا على مسيحيتهم أم اعتنقوا الإسلام من قريب.

وكانت هذه الأرستقراطية الحربية سوريةً، فى الجانب الأكبر منها، وهو ما يسمح لنا بأن نؤكد، ويحق، أن الأسماء الجغرافية التى جعلوها تتغلب فى محال إقامتهم الجديدة، إلى جانب أسماء البلاد الأيبرية القديمة، كانت تشكل بالنسبة لهم لقباً من ألقاب الشرف، ومبدأ من مبادئ التضامن[٢].

لدينا براهين عديدة على اهتمام عبد الرحمن الداخل، مؤسس المملكة العربية فى إسبانيا، حول منتصف القرن الثانى للهجرة تقريباً، اهتماماً مستمراً ببناء الدولة، وإطاراتها الاجتماعية، على نفس الصورة السورية خلال الحكم الأموى هناك فى دمشق، وبهذه الطريقة دعم تقليداً كان مشرقياً خالصاً. ومن جانب آخر، وكان تشابه الظروف الجغرافية بين البلدين يعاونه على تحقيق رغبته هذه، أتاح الفرصة، كما هو متوقع، للعديد من المشابه الأدبية، والشعر من بينها بخاصة. فالمزارع الخضراء فى الريف الأندلسى تشبه الغوطة الوارقة على مشارف دمشق، ومن هنا كانت ذكراه الحنون إلى نخيل الواحات السورية[٣]، «وحور البساتين على ضفاف نهر العاصى».

جاء عرب المشرق إلى إسبانيا ومعهم أنماط حياة أسلافهم، وحافظوا على أشكالها، وبقيت مدة طويلة دون أن تمس، وكان من الضرورى أن يتمثلوا أرض شبه الجزيرة الإيبرية فى بطء، وأن يكيّفوا حياتهم مع واقعها تدريجاً، وأن يتصلوا اجتماعياً مع السكان

الأصليين، صلات كانت فى البدء متقطعة عمداً، ثم أصبحت ضرورية ومستمرة مع الزمن، لأن هؤلاء أخذوا يدخلون فى دين الله أفواجا، وأدى هذا كله إلى أن تفقد التقاليد العربية الأصلية تدريجاً شيئاً من حدتها، أو إن شئت ارتضت مؤثرات لم تكن بمنجى من آثارها، ولو أنها حافظت فى الوقت نفسه على مكانتها الرفيعة، وتحقق معها النظرية التى دافع عنها العالم الفرنسى تين Taine، واشتهرت فى القرن التاسع عشر الميلادى وهى : انحلال الأجناس، وإطار الحياة الطبيعى، والظروف التاريخية.

وأيضاً وجد التقليد المشرقى فى إسبانيا دعماً وعمقاً منذ تولى عبد الرحمن الداخل الإمارة، وجاءت به الجماعات العربية التى وصلت متفرقة، جذبهم إلى الأندلس النجاح فى إقامة دولة أموية على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط. ومن السهل أن نتتبع حركة سير كثير من أولئك المهاجرين، أو الداخلين كما كان يطلق عليهم فى العربية إذ ذاك، فى أنساب الشخصيات الغفيرة، التى تزدحم بها كتب التراجم الأندلسية، أو قوائم الأنساب، ويجىء ابن حزم بكتابه «جمهرة أنساب العرب» فى طليعة هؤلاء المؤلفين.

كون هؤلاء المهاجرون، إلى جانب أولئك الذين انحدروا من سلالات «الجند» واستقروا فى إسبانيا من قبل، طبقةً اجتماعية عربية أطلق عليها اسم «الشاميون»، على حين أن العرب الذين

وصلوا مع الفتح أو بعده مباشرة، وكانوا أول من شارك في الحياة الاجتماعية، تجمّعوا فى طبقة أخرى تخالف تلك وحملوا اسم «البلديون».

ومضى زمن غير قصير بعد وصولهم إلى شبه الجزيرة، قبل أن تهدأ بين الاثنين عصبياتهم القبلية، والخصومات المترتبة عليها، وجاءوا بها معهم كاملة من المشرق إلى المغرب، وقبل أن يقضوا على النزاع العربى القديم الكامن بين القيسيين واليمنيين(٤)، وأخذ فى إسبانيا على امتداد سنوات طويلة، وعلى بعد آلاف الأميال من منشأ أهله، أبعادا خطيرة، فاقت فى بعض الأحايين كل حدّ.

وعلى أى حال ألّف بغض العباسيين بين شمل الجماعات العربية الأصل، التى التفت فى شبه جزيرة إيبريا تحت الحكم الأموى، خلال القرون الأولى من الفتح الإسلامى، وأى ثورة تفجرت فى إسبانيا مناهضة للعرب، كانت تلتف دائما حول راية سوداء رمز الخلفاء العباسيين فى بغداد، ترفع فى هذه المناسبة دون اقتناع كبير بما ترمز إليه، ودون أن تكون الثورة مطلقا وليدة دعاية قادمة من آسيا، ذلك أن العباسيين سرعان ما انصرفوا عن التفكير فى ضم إسبانيا إلى دولتهم، ولم تكن أوربا القريبة منهم تثير اهتمامهم فى شىء، إلا على صورة محدودة جداً، ومن الضرورى إذن أن نرد العلاقات السياسية التى قامت بين هارون الرشيد والأمبراطور شرلمان، وكانت فى الحقيقة متواضعة جدًّا، إلى

حجمها الطبيعى، حتى ولو جازفنا بمحو صورة رائعة، عزيزة علينا، استقرت فى أعماقنا منذ كنا طلاباً.

فيما يتصل بالجانب الثقافى فحسب يمكن أن نقول شيئا، فمنذ القرن التاسع الميلادى، امتزج المشرق العباسى، قليلا قليلا، وبطريقة غير مباشرة، فى ثقافة إسبانيا العربية، دون أن يهدف إلى محو التقاليد السورية على أرضها، وكانت ذات فعالية دائما، وإنما ليدخل فيها الجانب الأكبر من الاتجاهات والمستحدثات الحضارية فى بغداد.

وخلال ذلك حققت إسبانيا الإسلامية، ولما تزل نشوى بتأثير المشرق، وحدتها السياسية، ووحدتها الدينية أيضا، عندما إختارت المذهب المالكى لتسير على هداه، وحل رسميا - تقريبا - محل مذهب الإمام الأوزاعى فى شبه الجزيرة، خلال إمارة الحكم الأول وبأمر منه، لأن بعض علماء الأندلس الذين ذهبوا إلى المشرق، وتلقوا العلم على يد الإمام مالك، نقلوا إلى الأمير حين عادوا إلى قرطبة، ما لمسوه عند عالم دار الهجرة العظيم من تقدير لمملكة الأمويين فى المغرب.

ترك اتخاذ المالكية مذهبا فى إسبانيا العربية تأثيرا كبيرا فى مستقبلها الثقافى، واستقبل الأندلسيون المذهب الجديد بحماسة بالغة، لأنه حرر الدولة الأموية من الوصاية الدينية للعباسيين، وفى الوقت نفسه تأصل فى المغرب سريعا، وفيما بعد حقق نفس

البهاء الذى يميز الدراسات الفقهية المتصلة بالمذهب المالكى، ولم يخب نورها منذ ذلك الحين، ولا يزال الفقه فى المغرب، وحتى اليوم، يمثل جوهر النشاط الثقافى.

ومهما يكن من أمر، فقد شهدت إسبانيا منذ أن اتخذت المالكية مذهبا مولد مدرسة فقهية تجاوزت شهرتها، فى سرعة بالغة، حدود العالم الغربى، ولها أن تزهو بفقهاء كبار مشهورين، من الطبقة الأولى، أمثال: عبد الملك بن حبيب مؤلف كتاب «الواضحة»، ومحمد العتبى. أما المحاولات الوجلة التى قام بها بَقِى بن مَخْلد، واستهدف بها إدخال المذهب الشافعى فى إسبانيا، فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، فلم تؤد إلى أية نتائج، وبقيت بلا غدٍ، ومثلها فى ذلك المحاولات الأخرى التى بذلها الآخرون للانضمام إلى حركة رجعية مناهضة للحركة العقلية، وكانت تحاول حينئذ، على امتداد العالم الإسلامى، الوقوف فى وجه الخطوات المتقدمة التى حققها علم الفقه.

ولكن ذلك لا يعنى أن الأندلس ظل على الدوام بمنأى عن الصراعات المذهبية، لأن سقوط الخلافة القرطبية قريبا من نهاية القرن العاشر، ومع مطلع القرن الحادى عشر الميلاديين، مهد الطريق أمام صراع الأفكار، وفى هذا الوقت كان ابن حزم يجدد المذهب الظاهرى، ويسعى دائبا لكى تنتصر اتجاهاته على الفقهاء المحافظين من مواطنيه من أتباع المذهب المالكى.

يمكن القول بسهولة إن فترات الهدنة السياسية أكثر الأوقات ملاءمة لازدهار الفكر وتطوره على الدوام، ولفعالية التأثيرات الثقافية المتبادلة وخصوبتها، وسوف يكون أمراً ظالماً ألاّ نفسح مكاناً متميزا للدور البالغ الأهمية الذى اضطلع به المشرق الإسلامى فى بناء الحضارة العربية الإسبانية، على أيام أمير قرطبة الرابع، عبد الرحمن الثانى، وبتعضيد قوى منه، وظل أميرا فى الفترة من عام ٨٢٢ إلى ٨٥٢م، وكان امتدادا لوالده الحكم الأول، أحد بناة الوحدة الأموية الأندلسية الأقوياء.

جاءت هذه الفترة الكافية من السلام النسبى فى إسبانيا على موعد مع حركة تجديد حقيقية، استطاع فيها المشرق العباسى وبحق، أكثر مما استطاعت التقاليد السورية فى الأندلس، أنَ يدَّعى الأصالة والفضل، وظل هذا كله موضع شك قليلا حتى أيامنا، ولكن مجموعة من الإشارات التاريخية القليلة، موجزة ومضطربة، ألهمت المستشرق الهولندى دوزى، وهو من أكثر المؤرخين المحدثين معرفة بإسبانيا الإسلامية، لوحة لعصر عبد الرحمن الثانى، لا نراها اليوم قديمة فحسب، وإنما نعتبرها فيما يتصل بالنتائج التى انتهى إليها غير دقيقة تماما فى أكثر من موضع.

حتى هذا الوقت* لا نملك غير بعض الفقرات التى ترد موجزة

* وقت إلقاء المحاضرة عام ١٩٣٨م.

فى الحوليات المختلفة، مما يحول دون دراسة متعمقة لهذا العصر تُبنى عليها، وكان حاسما فيما يتصل بتطور الثقافة الإسبانية، ولكن كان من حظى أن اكتشفت منذ أعوام قليلة وثائق عن تاريخ الأندلس السياسى، والأدبى، تحت إمارتى الحكم الأول وعبد الرحمن الثانى(٥). وهذه الوثائق تفتح آفاقا جديدة للغاية، ومن وجهات نظر عديدة، لتكوين فكرة عن ازدهار ثقافى كنا نعتقد حتى الآن أنه حدث فيما بعد، متأخراً مئة عام على الأقل، على حين أنه فى الحقيقة بدأ يتفتح على بطحاء شبه الجزيرة منذ النصف الأول من القرن التاسع الميلادى، بتأثير مباشر من الحضارة العربية فى المشرق على أيام العباسيين.

وعندما نقرأ الفقرات الأكثر دلالة فى هذه الوثائق الجديدة، يبدو لنا عبد الرحمن الثانى من خلالها حامى العلماء، وصديق الأدباء، ونصير الفنون، وشغوفا بكل ما يتصل بالفلك والتنجيم على نحو خاص، حتى أنه أوفد قبل أن يتولى الإمارة العالم القرطبى عباس بن ناصح إلى العراق، لكى يبحث له عن المؤلفات العلمية اليونانية والفارسية التى تُرجمت إلى اللغة العربية، وأن يقوم بنسخها له.

وكان هذا الأمير يجد لذة خاصة فى دراسة كتب الفلسفة القديمة والطب، لكى يرضى فضوله فى استطلاع المستقبل، وأحاط نفسه بجماعة من علماء الفلك، وخصص لهم رواتب عالية جداً، لكى

يراقبوا معه السماء وحركة الكواكب الأخرى، فيكتشف طوالعها حتى فى أتفه عوارض الحياة اليومية.

وتقدم لنا النصوص الجديدة المتعلقة بالأمير عبد الرحمن الثانى العاهل الأموى، موزع الوقت والفكر بين متابعة المنشآت العمرانية الكثيرة التى نعمت بها قرطبة على أيامه[٦]، وبين الصيد بالصقور فى سهل الوادى الكبير، يلاحق طائر الكركى، وكان أكثر الطرائد ابتغاء فى تلك الأيام، وبين دراسة السماء، ومتابعة شئون الدولة، وأيضا شهود الحلقات الأدبية، والحفلات الموسيقية، وكانت شحيحة حتى ذلك الوقت فى عاصمة الأمويين الإسبان.

يعود الفضل إذن فى تنظيم قرطبة على النظام العباسى إلى عبد الرحمن الثانى، وليس إلى سميه عبد الرحمن الناصر، كما كان يعتقد حتى وقت قريب، والذى حكم بعد ذلك بقرنين من الزمان، ولكى لا يبقى أمير قرطبة دون خلفاء بغداد، وكان يعرف الكثير عنهم، وعن نظم الدولة العباسية ومرافقها، فى تناسقها وتشابكها، من خلال الأوصاف التى جاءته بها عيونه، إثر عودتهم من المشرق، احتذى نهجهم، دون أن يجد فى العداوة التقليدية بين الأسرتين عائقا يحول بينه وبين السير على خطاهم، أو ينفر من تقليدهم. ولهذا نكتشف أن الإدارة فى قرطبة، فى خطوطها الرئيسية على الأقل، قامت منذ النصف الأول للقرن الثالث الهجرى على أسس منقولة مباشرة من نظام الإدارة العباسية، وهو

نفس ما حدث فى تنظيم خدم الأمير، بالمعنى القديم لهذا المصطلح ، وجاء تقليدا مثيرا للغاية لما كان يفعله خلفاء بغداد، إلى جانب أنه نموذج إسلامى شرقى يرتبط بالتقاليد الفارسية لملوك الأسرة الساسانية.

أنشأ أمير قرطبة تشبُّها بالعباسيين، دار سك العملة، ودشّن استخدام الخاتم الرسمى ، وأسس دار الطراز وتقوم على تنظيم مصانع النسيج التى تنتج السجاد والأقمشة، وكانت هذه تعدل من كل الوجوه أجمل أنواع النسيج المشرقى فى العصور الوسطى ، ولم يكن لدى خلفائه ما يفعلونه غير الحفاظ على هذه التقاليد التى ابتدعها، وما أضافوه إليها لا يعدو التعديل والتحسين، ولو أنها فيما بعد سوف تأخذ طابعا إسبانيا خالصا ، أمّا فى عهد عبد الرحمن الثانى، وخلال عشرات السنين الأولى التى تلت حكمه، فإن هذا التقليد لم يقدم أى اتجاه أصيل، وإنما بقى كما هو، وعلى نحو ما تلقاه الأندلس من المشرق.

ويقدم لنا المؤرخ العظيم أحمد الرازى، فى دقته المعتادة، ودون أن نحمل نصه أكثر مما يحتمل، أو نضطر إلى قراءة ما بين السطور، معلومات ذات أهمية بالغة عن الدور الراجح الذى لعبه الشرق الإسلامى فى تكوين الثقافة الأندلسية خلال القرن التاسع الميلادى، فكل ما يجئ من بغداد، أو المدن الأخرى فى

الإمبراطورية العربية، تستقبله إسبانيا الإسلامية بإعجاب، أو بتقدير واحترام على الأقل.

وفيما يرى الرازى، أدت المنازعات الداخلية العنيفة التى كانت العاصمة العباسية مسرحاً لها قبل أن يتولى المأمون الخلافة إلى نتائج غير متوقعة، فسهلت نزوح الجانب الأكبر من الكنوز الملكية التى نهبت من قصور بغداد إلى إسبانيا، ويقدم لنا مثلا على هذا بأن الأمير الإسبانى اشترى عقد السلطانة زبيدة الشهير بواسطة أحد وكلائه فى المشرق، وقدمه إلى الأميرة شفاء إحدى محظياته*.

وكانت الخزينة الخاصة بالأمير متخمة بالثروة، بفضل الدخول الأندلسية الهائلة التى يتحصل عليها، وتسمح له بشراء الجواهر الفريدة، والكتب النادرة، والأقمشة الثمينة، بأى سعر مهما غلا، وتعود نبهاء التجار أن يقوموا بهذه الرحلة الطويلة والخطرة إلى إسبانيا ليقدموا إلى عاهلها فرائد الأشياء وأثمنها.

ويمثل اختيار زرياب المغنى العراقى الإقامة النهائية فى إسبانيا أحد العوامل الأقوى حسما، دون شك، فى رد المملكة الأندلسية إلى المشرق من جديد، فى عهد هذا الأمير المستنير، وسجل العديد من المؤرخين وصول هذه الشخصية، ولكن على نحو أوجز بكثير

---

* تتبعت فى كتابى: ملحمة السيد، دراسة مقارنة فى فصل «السيد إنسانا» رحلة ونهاية جانب من هذه الجواهر، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

مما نجد عند أحمد الرزاي فى تاريخه، ولما يزل مخطوطا. وأضفى قدومه على إسبانيا بريقا وهاجاً على كل ما يرد من المشرق، ومن ثم فهو يستحق ألاّ نكتفى بالإشارة إليه عجلين، ويستأهل منا وقفة مستأنية، وحديثا مستفيضا.

وُلد أبو الحسن على بن نافع فى العراق، عام ١٧٣ هـ = ٧٨٩ م وكان مولى للخليفة العباسى المهدىّ، ولُقب بزرياب، وهو «لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه، مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله»، وإذا صدقنا الذين ترجموا له، لأنه «شُبِّه بطائر أسود غرد»، واشتهر زرياب وهو فى سن طرية، لما يزل تلميذا لأسحاق المغنىّ والموسيقى الذائع الصيت فى بلاط بغداد، وبلغت شهرة زرياب حدا من الذيوع جعلت هارون الرشيد يطلب من أستاذه إسحاق أن يحضره معه ليختبر كفاءته.

وفى حضرة الخليفة الرشيد فاق الموسيقى الفتى كل ما يمكن أن يتوقع منه، حتى أن أستاذه غار منه وحسده، وتحركت فى أعماقه نوازع الشر، فطلب إليه أن يرحل بعيدا عن بلاط الخلافة، وأن يمضى إلى الغرب يلتمس حظه هناك، وخشى الطالب على حياته من أستاذه إن واصل الإقامة فى بغداد فعزم على الرحيل، وخلال إقامته القصيرة فى بلاط الأمير الأغلبى زيادة الله الأول، كتب إلى الحكم الأول أمير قرطبة، وسبقه إليها خبر براعته وتفوقه : «يعلمه بمكانته من الصناعة التى ينتحلها، ويسأله الأذن فى الوصول إليه،

فسر الحكم بكتابه، وأظهر له من الرغبة فيه، والتطلع إليه، وإجمال الموعد ما تمناه. فسار زرياب نحوه بعياله وولده، وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء، فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم فهم بالرجوع إلى العدوة، فكان معه منصور اليهودى المغنى رسول الحكم إليه، فثناه عن ذلك» ورغّبه فى أن يقصد ابنه عبدالرحمن الثانى، الذى تولى الإمارة بعد أبيه، وكتب إلى هذا بخبر زرياب، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه، وترحيبه بقدومه، وكتب إلى عمال البلاد أن يحسنوا إليه، وأن يوصلوه إلى قرطبة. وركب الأمير بنفسه، وخرج من المدينة لاستقباله، وغمره بالهدايا، وأنزله فى دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه وخلع عليه، وكتب له فى كل شهر مئتى دينار راتبا، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه، وكانوا أربعة، عشرون دينارا لكل واحد منهم فى الشهر، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، منها لكل عيد ألف دينار، ولكل مهرجان ونوروز خمس مئة دينار. وأن يُقطع له من الطعام ثلاث مئة مدى، ثلثاها شعير وثلثها قمح، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها، ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار، فهدأ المهاجر بالاً، ووضع لتردده حدا، وعزم على الاستقرار فى إسبانيا بقية أيامه.

وسرعان ما فرض زرياب نفسه على المجتمع القرطبى بمواهبه

الموسيقية، وبثروته المادية أيضاً، وأحدث سخاء الأمير الإسبانى عليه دهشة كبيرة سرعان ما عمت العالم الإسلامى*، حتى أن موسيقيا آخر من بغداد عَلُّويَه الأعسر، شكا إلى الخليفة العباسى المهدى، وقارن بين حاله وحال زرياب، وكيف أن هذا يجوب شوارع قرطبة فى موكب فخم من الفرسان، ويملك ثلاثين ألف قطعة من الذهب، بينما يعيش هو حالة تعسة تكاد تفضى به إلى الموت جوعاً.

عندما وصل زرياب إلى إسبانيا عام ٢٠٦ هـ = ٨٢٢م كان يبلغ من العمر نيّفا وثلاثين عاما، ومكث فيها كما أشرنا إلى أن وافته منيَّته عام ٨٥٧ م، وعبر هذه السنين كلها كان صاحب الأمر والنهى دون أدنى منازع فى كل ما يتصل بالأناقة، والشخصية التى تحتذى فى كل أنماط الملابس الجديدة، ولم يتوقف تأثيره فى مسلمى الأندلس عند هذا المظهر الخارجى فحسب، وإنما تجاوزه إلى أنماط حياتهم الخاصة أيضاً.

وطبقاً لما يقوله الذين أرخوا له من المترجمين، أظهر زرياب فى

---

* وأثارت دهشة الفقهاء فى قرطبة نفسها، وعبر عن ذلك عبد الملك بن حبيب فى أبيات من الشعر يقول فيها :

قد طاح أمرى والذى أبتغى ... هين على الرحمن فى قدرته
ألف من الحمر وأقلل بها ... لعالم أربى على بغيته
زرياب قد أعطيها جملة ... وحرفتى أشرف من حرفته

الأرض التى أحسنت استقباله، كموسيقى محترف، عبقرية مجدِّدة، فأنشأ معهداً للموسيقى، وسرعان ما أخذت الموسيقى الأندلسية سمات الأصالة كاملة، وسرى تقليدها، ولا يزال، فى كافة أنحاء المغرب الإسلامى قويًا وحاراً، وكانت قبله وثيقة القربى بالمدرسة المشرقية التى أذاع إسحاق الموصلى صيتها. وتدين له إلى جانب هذا باختراعات فنية أخرى، أوضحها العود ذو الأوتار الخمسة، وحل مكان العود ذى الأوتار الثلاثة، وكان يستعمل حتى ذلك الحين، واخترع «مضراب العود من قوادم النسر معتاضاً به عن مرهف الخشب».

ومهما يكن من أمر، فلعل التأثير الذى مارسه زرياب فى قرطبة بوصفه موسيقيًا، أقل من تأثيرات أخرى أعظم عمقاً، أحدثها بآرائه فى مجتمع الطبقة الأرستقراطية المعاصرة له فى إسبانيا الإسلامية، وهو يذكرنا فى الحال بشخصيات أخرى مارست مثل هذا الدور، مثل بترون Pétrone وبرُميل Brummel*، ودون شك يتشابهان فى بعض الجوانب مع ذلك المشرقى صاحب الذوق الرفيع، ولنلتقط، كيفما اتفق بعض الأمثلة من بين التجديدات

* بترون : كاتب لاتينى، من أصل غالى، تميز فى بلاط نيرون بأناقته، وشبقه وكتب Sataricon، وهو وثيقة دقيقة لدراسة العادات الرومانية فى القرن الأول الميلادى، واشترك فى مؤامرة فشلت، فانتحر بقطع شرايينه عام ٦٦م.

أما بروميل فأنجليزى أنيق، ولد فى لندن، وعاش أعوام ١٧٧٨-١٨١٥، وشهر بحرصه على جمال زيه، وكان على أيامه يلقب بملك الأناقة.

التى ينسبها له المؤرخون، وأتى بها فى ذلك الوسط، وكان محافظاً حتى ذلك الوقت، يعيش نمطاً من الحياة ظل على حاله لم يمس تقريباً، على امتداد أكثر من قرن من الزمان، أى منذ تأسست إمارة الأمويين فى الأندلس.

بدأ زرياب يعلم القرطبيين طرائق الطعام الأكثر تعقيداً فى المطبخ البغدادى[٨]، ودرّبهم على طريقة إعداد مائدة راقية وأنيقة، لا تقدم فيها الأطباق فوضى، بلا نظام كيف ما اتفق، وإنما يجب البدء أولا بأطباق الشوربة والسواخن، تليها أطباق اللحم وألوان الطيور المتبلة بالبهارات الجيدة، وفى دقة كاملة، وأخيراً تأتى أطباق الحلوى من الفطائر المصنوعة من الجوز واللوز والعسل، والعجائن المعقودة بالفواكة المعطرة، والمحشوّة بالفستق والبندق.

واختار غطاء المائدة من سُفْر الأديم الرقيق، وعليه يُقدم الطعام، بدلا من الغطاء القطنى الخشن، لأن الأول سهل التنظيف، يزول عنه الوضر بأقل مسح. وأشاع بين الناس استخدام أوانى الزجاج الرفيع، بدل الأوانى المصنوعة من الذهب والفضة. وباختصار افتتح فى قرطبة، إذا أمكن القول، معهداً حقيقيًّا للجمال، يعلم الناس فن التزيُّن، وطرق الخضاب، وإزالة الشعر، واستعمال معجون الأسنان، وهندسة الرأس، إذ كان جميع من فى الأندلس «رجل أو امرأة يرسل جمته مفروقاً وسط الجبين، شاملاً للصدغين والحاجبين، فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو

وولده ونساؤه لشعورهم، وتقصيرها دون جباههم، وتسويتها مع حواجبهم، وتدويرها إلى آذانهم، وإسدالها إلى أصداغهم، هوت إليه أفئدتهم واستحسنوه»[٩]. ووضع نظاما لارتداء الأزياء المختلفة، وأوقاتا محددة لتغييرها، ولكل فصل زيه المناسب، فيرتدى الناس الملابس البيضاء صيفا فحسب، من مطلع حزيران، أى يونية، حتى نهاية تشرين الأول، أى أكتوبر، ويلبسون الملابس الملونة بقية أيام السنة. ويلبسون الأزياء الحريرية الخفيفة، غير المبطنة، والسترات ذات الألوان الزاهية، فى فصل الربيع، ويلبسون فى الخريف والشتاء الفراء والمعاطف ذوات الحشو، والبطائن الكثيفة، ينتقلون فيها تدريجا، حسب شدة البرد، من الأخف إلى الأقوى.

وكان الناس يلتمسون آراءه، ويطبقونها نصا وروحاً. وما من تأثير لأناقة الحضارة العباسية ورقيها يمكن أن يكون أشد نفاذاً، وأبعد عمقا، عما كان عليه فى قرطبة، ونزولا على رأى زرياب الذى لا يناقش، ويُقبل على علاته، غيَّر أهل البلاط وسكان المدينة أزياءهم، وأثاث بيوتهم، وأساليب طبخهم، حتى أن اسم بترون Petrone العربى ظل يتردد بعد ذلك لقرون عديدة، كلما ظهر فى صالونات شبه الجزيرة زى جديد أو مبتكر.

وتعود بداية التأثير القوى الذى قامت به المرأة فى أوساط المجتمع القرطبى المثقفة إلى عصر عبدالرحمن الثانى فيما يبدو،

وسرعان ماتبين له أن القصر الملكى يضيق كثيرا عما هو ضرورى زخرفة وسعة، لإيواء محظيات الأمير العديدات، وجميعهن اشتهرن فى المجتمع لا بجمالهن وثقافتهن فحسب، وإنما بتقواهن أيضا، وكل واحدة منهن أقامت فى قرطبة، على حسابها الخاص مسجدا أو سبيل ماء يحمل اسمها.

ويرى المستشرق الهولندى دوزى فى واحدة منهن تسمى طروب، حابكة دسائس، ورسم لها صورة قاتمة، غير أن المفضلات عند الأمير كن فيما يبدو، أو لئك اللائى أطلق عليهن اسم« المدينيات الثلاث »*، وتمتعن بمركز مرموق بوصفهن أمهات أولاد، لأنهن أنجبن من الأمير أولادا ذكورا، وإحداهن وهى فضل نشأت فى بلاط هارون الرشيد، وتلقت هناك تربية عالية فى الشعر والموسيقا لا نظير لها، ومن بغداد انتقلت إلى المدينة المنورة، وفى هذه المدينة الأخيرة استطاع رسل الأمير القرطبى أن يحصلوا عليها لحساب سيدهم، مع اثنتين أخريين لم تكونا أقل جمالاً ولا أدنى تربية.

وما أعجب تصاريف القدر!. ذلك إن إحدى هؤلاء « المدينيات الثلاث » ليست إلا فتاة من مقاطعة نبرة فى شمال شرقى إسبانيا، وقعت فى السبى صغيرة، ثم بيعت، وأرسلت إلى المدينة

---

* رواية المقرى فى كتابه نفح الطيب، جـ ١ من ٢٤٩، ٣٥٠، طبعة إحسان عباس تجعل الحق إلى جانب دوزى.

المنورة فلم تبرحها إلا لتعود من جديد إلى موطنها ومهبط نشأتها، فتفتن بأغانيها، وملامح فكرها، سيد إسبانيا العربية.

أوضحنا، فيما أعتقد، على الأقل فى خطوط عريضة، التأثير الواضح الذى تركه المشرق بعامة، والحضارة العباسية بخاصة، خلال القرن التاسع الميلادى، فى مجتمع المدن الأندلسية، وأما النتائج التى نجمت عن هذا التأثير فلن نتوقف عندها طويلا، يكفى أن نشير إلى التجديد الفكرى الذى أحدثه فى الجانب الإسلامى من شبه الجزيرة، ويتجلى ذلك واضحا فى يحيى الغزال، وهو شاعر لم يعن به الدارسون حتى الآن إلا قليلاً جدًّا، وأبدع أشعاراً ذات إلهام روحى أحيانا، وجاءت هجاء سليطا فى أحايين أخرى. وعباس بن فرناس، وهو عالم فلكى رسمى، «صنع فى بيته هيئة السماء، وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود»، واحتال فى تطيير جثمانه، وكسا نفسه الريش، ومد له جناحين، وطار فى الجو مسافة بعيدة، ولكنه لم يحسن الاحتيال فى وقوعه، فتأذى فى مؤخره، ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زمكّة، ولم يعمل له ذنبا»، ولكنه نهض دون أن يصاب بأذى تقريبا، فكان مثل إيكار Icare* تماما، وجاء بعده ثانى مبشر

* ابن ديدال فى الأساطير اليونانية، وصنع لنفسه أجنحة ألصقها فى جسمه بالشمع، وحاول أن يطير بها من جزيرة كريت، وما أن اقترب من الشمس حتى ذاب الشمع، وانفصلت عنه الأجنحة، فسقط فى البحر.

بالطيران فى أوائل العصور الوسطى.

بدأ تأثير الشرق العباسى فى إسبانيا ذات التقاليد الأموية، وظل حتى يومنا هذا احتمالا قائما لا يمكن البرهنة عليه بأدلة مقنعة، يعانى منذ مطلع القرن العاشر الميلادى، لأسباب ذات طابع سياسى ألمحنا إليها من قبل، مرحلة توقف إن لم تكن نهائية، فعلى الأقل تتصف بالانكماش، ويصبح من الصعب معها حينئذ تبين الإضافات التى حملها، لأن الأندلس عندما أعلن نفسه خلافة إنطوى على ذاته، ولم يعد يمثل دور المتلقى من الخارج، وإنما عمل على أن تشع هيبته، كشعب عظيم وذو حضارة راقية، خارج حدوده.

غير أن المبادلات التجارية بين الشرق والغرب واصلت سيرها نشطة دون ريب، وما من أحد يستطيع أن ينكرها، خلال هذه الفترة كلها، والتى تمتد حتى دكتاتورية المنصور بن أبى عامر، وكان بلاطه الأدبى يعتمد فى القليل على أديب مشرقى، وهو الشاعر صاعد البغدادى[١٠]، ولكن هذه المبادلات سرعان ما عادت أشد قوة، وأنشط مما كانت عليه، إثر انتثار عقد الخلافة، ووجدت الظروف يومها مواتية فى قوافل الإسبان الأتقياء الذاهبون لأداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة، وفى المشارقة القادمون إلى الأندلس، تجذبهم إليه المراكز الثقافية، فى عواصم المقاطعات المختلفة، التى امتدت شهرتها إلى ما وراء البحار، حيث يلقون

الترحيب الحار بدءا، ويحاطون بالرعاية غالبا، وتجرى عليهم المرتبات فى سخاء.

وأدب التراجم، وأفرد أبوابا خاصة بالأندلسيين الذين ذهبوا إلى المشرق، وبالمشارقة الذين قدموا إلى الأندلس، يسمح لنا أن نؤكد، دون أن نجازف بالوقوع فى الخطأ، أن القرن الحادى عشر الميلادى والقرون الثلاثة التى تلته، شهدت علاقات ثقافية نشيطة، لا تقل أثراً فى أضعف الحالات عن العلاقات الاقتصادية.

أما العلاقات الاقتصادية، فأخذت تنمو مع الزمن نموا ملحوظا، وكانت الأساطيل التجارية فى موانئ الأندلس، إشبيلية ومالقة ودانية وبلنسية والمرية، تعمل بين كل مدن البحر الأبيض المتوسط، وتحمل على ظهرها البضائع المصدرة، زراعية من ثمار الأرض الإسبانية، أو صناعية من نتاج المعامل فى المدن الإسبانية المختلفة، فالأغطية من جنجلة chinchilla، والسجاد من باسة Baza وكالسينة Calsena، وفراء السمور من سرقسطة Zaragoza والخزف المذهب من مالقة، والمجوهرات المرصعة، والجلود المنقوشة، والسلاح من طليطلة Toledo، والورق السميك من شاطبة Jativa، وغير ذلك كثير.

وكانت هذه العلاقات متواصلة ومستقرة، وبخاصة مع مصر، وبدأ تأثيرها منذ القرن الحادى عشر الميلادى يأخذ شكلا قويًا

ونشطاً، وأوضح هذا الأمر المرحوم أحمد زكى باشا، فى مقالٍ نشره منذ أكثر من ثلاثين عاما[١١]. وحتى فى النقوش العربية نفسها نجد ما يؤكد قيام هذه العلاقات الاقتصادية، فقد عثر فى مدينة المرية على شاهد يحمل اسم تاجر من مدينة الإسكندرية وافته المنية فى هذا الميناء الإسبانى عام ٥١٩ هـ - ١١٢٥ م، فى رحلة عمل إلى الأندلس، وجاءت فى الوقت الذى كانت فيه هذه المدينة الإسبانية تصنع أقمشة رائعة تحظى بشهرة واسعة على امتداد العالم كله إذ ذاك[١٢].

* * *

وجاءت اللحظة التى نتصدى فيها لأفكار أكثر شمولا، فندرس الآن الخطوط العريضة التى جعلت الغرب الإسبانى يرتبط على امتداد كل العصر الوسيط بالتقاليد الثقافية التى وُلدت وتطورت، واستقرت أخيرا فى الشرق العربى، وبهذا المعنى ثمة برهان يفرض نفسه بدءا، ويعزل كل ما عداه، وهو ما أسهمت به إسبانيا من نصيب، على امتداد كل عصور تاريخها، وكان ضخما وغير مجحود، فى العمل الثقافى العملاق الذى يمثله الأدب العربى، سواء فى مجال العلوم الدينية أو العلوم اللغوية.

وعندما نعرض للأعمال الأصيلة الخالدة، أو الأكثر تواضعا من شروح الأعمال المشرقية، فإن الأندلس يستطيع أن يدعى لنفسه،

ومعه كل الحق، مكانا فى الصف الأول بين مقاطعات العالم الإسلامى الأخرى، ولنتحقق من هذا يكفى أن نقلب صفحات كتاب يتضمن تسجيلا لمؤلفات الباحثين والمؤلفين، مثل كتاب كشف الظنون لحاجى خليفة، أو كتاب آخر أقرب إلينا تاريخا مثل تاريخ الأدب العربى للمستشرق الألمانى بروكلمان، فنجد الأسماء الإسبانية تعرض متزاحمة، فى صفوف متراصة، خلال أى قرن من العصور الوسطى.

وفيما يتصل بالعلوم الدينية كالقراءات والحديث والفقه، أسهم العلماء الأندلسيون، دون توقف، على مر جميع عصور الإسلام الإسبانى، فى الجهد العظيم الذى بذله العلماء فى تفسير القرآن، وفى شروح الفقه، ولم تكن جهودهم موضع إنكار أبدا لا فى المغرب ولا فى المشرق على السواء. ويكفى أن نذكر هنا بعض الأسماء وبعض التواريخ، وهذه الأخيرة تبرهن على الجهد المتواصل فى نطاق هذه العلوم خاصة فى مجال الفكر العربى.

لقد بلغ علم القراءات فى إسبانيا قمته، من حيث التلاوة وقواعد القراءة، على يد أبى عمرو الدانى فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، وخلال القرن الذى تلاه مع محمد بن الرعينى الشاطبى وفيما يتصل بالتفسير يكفى أن نذكر القاضى ابن عطية، وألف تفسيره نحو ١١٥٠ م تقريبا، وانتشر سريعا، وعلى نحو واسع، فى كل من إسبانيا والمغرب على السواء. ويستطيع علم

الحديث من جانبه أن يزهو بمتخصصين أندلسيين فى مستوى جيد، سجلت أسماءهم كل عصور الثقافة الإسبانية مثل ابن وضاح، وقاسم بن أصبغ، وابن عبد البر، والقاضى عياض السبتى، نسبة إلى مدينة سبتة وغيرهم.

وكتب ابن سعادة المحدث نسخة جيدة الضبط من كتاب صحيح البخارى، فى مرسية، فى عام ٤٩٢ هـ، ووجدت توقيراً كاملا، وتستخدم اليوم فى كل المغرب الإسلامى، كما أوضحت فى مقدمة الطبعة المصورة لها، ونشرتها عام ١٩٢٨[١٣]، وتعدل فى صحتها والثقة فيها، ماتعدله صحة التوراة المترجمة عن الأصل اللاتينى.

أما نشاط الفقهاء فلا ينفصل عن الأسماء التى ارتبطت بنشر المذهب المالكى، وأشرنا إليهم من قبل، ونضيف إليهم الآن بعض أسماء الأعلام من كبار الأساتذة، وأتوا فيما بعد، مثل: أبى الوليد الباجى وأبى الوليد بن رشد (جد ابن رشد الفيلسوف)، وابن عاصم، مؤلف كتاب، تحفة الحكام فى نكت العقود والأحكام، وقاضى قرطبة منذر بن سعيد البلوطى، وغيرهم.

وازدهر فقه اللغة العربية، بالمعنى التقليدى الصرف، ازدهاراً مدهشاً، بفضل علماء أنفقوا كل حياتهم فى وطنهم وبفضل آخرين من الكثرة بمكان، رغبوا فى الرحلة إلى المشرق، لكى ينهلوا من منابع المعرفة نفسها هناك، مثل ابن مالك صاحب الألفية، وأتى

فيها على قواعد النحو العربى كلها فى ألف بيت من الشعر. وقد ولد فى مدينة جيان بالأندلس، وليس فى دمشق على خلاف ما يتردد وهما، وغادر مسقط رأسه؛ ولم يزل يافعا، إلى المشرق، وأقام فى سورية إلى أن توفى عام ٦٧٢ هـ = ١٢٧٤ م وسار فى طريقه، بعده بنصف قرن من الزمان، مواطنه اللغوى الشهير أبوحيان، وبعد أن درس فى مدينة غرناطة مسقط رأسه، وفى مالقة والمرية على التوالى، استقر به المقام فى القاهرة، حيث درس وأتقن اللغات التركية والفارسية والحبشية، ووزع نشاطه فى العاصمة المصرية بين التفسير والفقه وعلم اللغة، وخلف إنتاجاً هائلا، وفيها توفى عام ٧٤٥هـ = ١٣٤٤م.

وفى مجال دراسات فقه اللغة العربية تحتل المكانة الأولى شخصية إسبانية، وأعنى به ابن سيدة المرسى، نسبة إلى مدينة مرسية، وكان ضريراً وعاش فى القرن الحادى عشر الميلادى فى رعاية الأمير مجاهد، صاحب دانية، ولم يغادر إسبانيا أبداً، وألف معجمه المخصص فى اللغة، ورتب ألفاظه بحسب الموضوعات المتقاربة، وهو كتاب ضخم يقع فى سبعة عشر جزءاً، ويتفق مع أدق قواعد فقه اللغة التى وضعها كبار العلماء المشارقة فى هذا المجال، وعبثاً نحاول أن نجد فيه صدى الاصطلاحات اللغوية التى أدخلتها إسبانيا العربية، أو شيئاً من لحن العامة وهو ما يقع فى لغة التخاطب بين عامة الناس.

وفى مجال الأدب اشتهرت فى شبه الجزيرة الإيبرية أسماء لا تزال مألوفة فى أسماع المشارقة حتى الآن مثل: ابن عبدربه مولى الأمويين فى قرطبة، وتوزعت حياته بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وأعظم مؤلفاته العقد الفريد*، وهو موسوعة ضخمة، تأثر فى تأليفها بكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة إلى حد بعيد، وجل مادته مشرقى، ولم يتح للثقافة الأندلسية أن تحتل فيه المكانة التى أصبحت تستحقها ومنها كذلك أبو على القالى، وهو عراقى الأصل، واستقر به المقام فى إسبانيا، وسوف يتولى تربية الحكم الثانى، خليفة المستقبل، وهو أمر جدير بالملاحظة، وكان إلى أدبه على قدر واسع من الثقافة لا مثيل له، وكتابه الأمالى يعتبر من بين ذخائر التراث. ومنها أبو بكر الطرطوشى نسبة إلى طرطوشة، وقبل أن توافيه المنية فى الإسكندرية، وضع بحثاً فى الأخلاق السياسية، أعطاه عنواناً «سراج الملوك» ومن جانب آخر، فإن مقامات الحريرى الذائعة الصيت، عرفت شهرة واسعة فى إسبانيا، إبان حياة مؤلفها نفسه، وبعد مضى قرن من الزمان عكف الشريشى، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن، وهو من مدينة شريش Jerez على شرحها وتفسيرها.

أما الشعر العربى وتعود بدايته، كالمعلقات وديوان الشعراء

* درسنا كتاب العقد الفريد، منهجه ومصادره فى كتابنا دراسة فى مصادر الأدب، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم)

الستة الجاهليين، إلى العصر الجاهلى، فعرف فى شبه الجزيرة الإيبرية شراحاً عاكفين ونابهين، وأهمهم جميعا الأعلم الشنتمرى نسبة إلى شنتمرية الغرب Santa Maria de Algarve، وهى مدينة صغيرة تقع حالياً على ساحل البرتغال الجنوبى، غير بعيد من مدينة شلب Silves الأندلسية، واشتهر سكانها خلال العصور الوسطى بالبلاغة فى القول، والفصاحة فى الحديث، وخلو عربيتهم العادية من اللحن، وقبل الأعلم شرح أستاذه الإفليلى، فى قرطبة، فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، ديوان المتنبى.

كانت الغاية من الإشارات التى أتينا عليها فيما سبق، وجاءت إلى حد ما جافة بالضرورة، أن نظهر إلى أى مدى أثّر ارتواء المشرق والكلاسيكية العربية فى الاهتمامات الثقافية فى إسبانيا العربية على مدى كل العصور، وحتى حين لا تكون طاغية، وتفسح المجال أمام أشد مظاهر الفكر الإسبانى أصالة، تبدو وكأنها بالغة الأثر فى الجانب الأكبر من الفروع الأدبية، وما أروع الدور الذى لعبته فى صقل الثقافة العربية فى إسبانيا.

وهكذا نجد أنفسنا مساقين إلى محاولة سبر سريع للعصر الذهبى فى الأندلس، من خلال الشعر الفنى، وأستعمل كلمة فنى عمداً، تمييزا له من الشعر التعليمى، وفى دراسة قريبة، جادة وعميقة، قام المستشرق الفرنسى هنرى بيريس بتحليل مواضيعه

الرئيسية فى دقة علمية لا مزيد عليها[١٤]*، وكانت هذه المواضيع عديدة، ولم تستلهم الطبيعة فحسب، وهى بالغة الجمال وموحية، وإنما دارت أيضا حول الحب والصداقة، والمديح والهجاء، واللذة والألم، والتفاؤل والإحساس الفاجع بالحياة. وكلها مستقاة على نحو ما، وفى ذكاء، من ماضى الإسلام الأندلسى فى عصوره المختلفة، ومن القرن الحادى عشر بخاصة.

وهذه الموضوعات تكشف بقوة، وغالبا على النقيض من الاعتقاد السائد، وجاء وليد أحكام مسبقة، عن ملمح من الأصالة العريقة، وعن شعراء يتمتعون بشخصية قوية، لم تترك التأثيرات القادمة من بعيد بصمات واضحة فى إبداعهم، أو تلاشت قبل أن تبلغهم، وتعكس مسجلة فى الوقت نفسه ذكاء ذاتيا، ووسطا متميزا، تضافرت ظروف عديدة على أن تجعل منه بقوة الأشياء مجتمعا آخر يختلف تماما عما عليه الحال فى عواصم المشرق.

ولكن ذلك كله لا يحول دون القول بأن هذا الشعر فى مجموعه، وحين ننظر إليه إجمالاً، بقى فى جوهره شرقيا وتقليديا إلى حد بعيد. وحتى أعتقد، زيادة على ذلك، أنه يبدو أحيانا وكأنه مجرّد

* ترجمت هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان: «الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف»، وكما نرى من العنوان فإن الدراسة تهتم أصلا بدراسة الشعر الأندلسى فى القرن الحادى عشر الميلادى. (المترجم)

تدريب لغوى، إن صح القول، لشعب لم تكن العربية الفصحى لغته القومية واقعا، ويريد أن يبرهن على أنه برع فيها وتميّز، وهو ما يذكر عفو الخاطر بالأجوبة الجيدة التى صاغها الشعراء أوفيد Ovide وكاتول Catulle، وهوراس Horace خلال عصر انحطاط اللاتينية*، وعندما يهتم الشعب الإسبانى المسلم بالدفاع المستمر عن اللغة العربية وتمجيدها، فى عناد وإصرار، فإنما يود أن يعبر من خلال ذلك كلة عن تفانيه وتعلقه بالمثل الأعلى، الأخلاقى والفكرى، الذى تحمله معها، وكانت مطيته إلى عالم الإسلام الفسيح، ولكن الشعب أيضًا كان يشعر أحيانا دون أدنى شك، أنه قيد نفسه بهذا التحديد وارتضاه عن طيب خاطر، وشد وثاقه بنفسه.

وأحيانا دون أن يفك الوثاق نهائيًّا كان يفلت منه فى الوقت المناسب، ليستنشق الهواء طلقا، ويلتقط أنفاسه مطمئنا، فتحرر من بحور العروض التقليدية الطاغية، وابتكر إطارات أكثر مرونة من الزجل والموشحة، لكى يودعها من الموضوعات ما تجرى به

---

* أوفيد، شاعر لاتينى (٤٣ ق. م - ١٧م)، له عدد من الكتب ودواوين الشعر، تدور حول الحب، منها: فن الحب، وغراميات.

* كوتول، شعر لاتينى (٧٨-٥٤ ق. م) جاءت أشعاره أنيقة وصادقة، ولكنها متحررة إلى حد بعيد.

* هو راس، شاعر لاتينى مشهور (٦٥ -٨ ق. م) وكتابه فن الشعر أشهر مانظم، وله قصائد أخرى تتميز بالشكل الدقيق والعفة، وهى نموذج للرقة والذوق الرفيع. (المترجم)

شياطين شعره إلهاما، وفى عفوية، فتجىء أقرب ما تكون إلى ذوقة نغمًا وصقلا. ومنذ نهاية القرن التاسع الميلادى؛ وفيما بعد ذلك بقليل، حين كان أدباء المشرق يتناقلون سرًا، وفى تحفظ، أناشيد شعبية، ذات تعابير جديدة تماما، لفتت الأنظار المحاولاتُ التى كان يقوم بها الشاعر الأندلسى مقدم بن معافى القبرى، لوضع أوزان جديدة، أقل صرامة من العروض التقليدى.

ويجب أن نعترف بأن مثل هذه الأعمال، وكانت جديدة كل الجدة، لم تمس فى شىء مستوى الإبداع الشعرى فى الجانب التقليدى فى إسبانيا العربية، وكانت تحترم قواعد اللغة من نحو وصرف، وصادفت نجاحا عاما فى الغرب، وشيئا فشيئا لقيت مثل هذا الصيت فى الشرق، ودفعت الشعراء هناك إلى محاكاتها، وحتى ألهمتهم شروحا وتفاسير حقيقية لها. ولا يجب أن نمر بالأمر عابرين حين نتذكر أن المخطوطة الوحيدة التى نعرفها لديوان الشاعر الشعبى الأندلسى العظيم ابن قزمان، وعاش فى قرطبة، فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى، إبان حكم المرابطين، نُسخت فى مدينة صفد فى فلسطين، وتولى شرحها صفى الدين الحلى، وهو كاتب شرقى معروف من القرن الرابع عشر الميلادى.

ومع أن التحرر من قيود الكلاسيكية الصارمة أقل عسرًا فى مجال المعمار، إلا أن المشرق ترك أيضًا بصماته واضحة بعمق، والأندلس شاهد بالغ الروعة على هذا، فى الجوانب الزخرفية من

آثار إسبانيا الإسلامية، وبالتالى فى آثار المغرب خلال العصور الوسطى.

وليس بوسعنا أن نقدم هنا معلومات مفصلة ودقيقة من الوجهة التقنية، كما هو مفترض ومطلوب، عن التأثيرات الشرقية التى يمكن أن نضع يدنا عليها، ونحن ندرس أهم الشواهد التى وصلتنا من معالم الفن الإسبانى العربى لأن مثل هذه الدراسة الفاحصة قام بها فى نجاح، خلال الأعوام الأخيرة، كثيرون من كبار مؤرخى الفن الإسلامى الغربى البارزين، وسوف نقنع بأن نردد النتائج الجوهرية التى انتهوا إليها.

خضع الفن الإسبانى العربى، فيما يبدو؛ لتأثيرات عراقية ملحوظة، لا يجرؤ أحد على إنكارها اليوم. ويتجلى ذلك واضحا، قبل أى شىء، فى المسجد الجامع بقرطبة، من خلال التجديدات المتتالية التى أجريت على هذا البناء الوقور، وتلقىٌ هذا التأثير، فى بعض الأوقات، بواسطة إفريقية، أى تونس المعاصرة، وتعتبر «محط انتظار على الطريق الممتد من بغداد إلى الأندلس»، وفى لحظات أخرى تلقاها من مناطق أبعد، «عن طريق فسطاط ابن طولون، أو القاهرة على أيام أوائل الفاطميين».

يقول جورج مارسيه فى مقال رائع له: لا يبدو تأثير الشرق الدائم فى إسبانيا، على أيام الخلافة، من خلال الأبنية وزخرفة العمارات، وإنما يطل أيضا من خلال الفنون الصناعية، حيث

تتعكس تلك النماذج الوافدة. ولا يزال خزف مدينة الزهراء يكمياته المنهلة فى انتظار من يدرسه، فى تقنيته، وزخارفه، وامتزاج ألوانه، وأصوله العراقية، أما صناديق العاج، مفخرة مصانع الخلافة، فاقتبست مواضيع زخرفتها من قائمة الفن الأسيوى التقليدية: مناظر الصيد، وحفلات الموسيقا، ومجالس الهوى(١٥).

هذا التأثير المشرقى فى الفن العربى الإسبانى؛ وكان فعالا دوْما، ومتسلطا فى بعض الأحيان، ويظهر على هذا النحو من خلال التعبير الشعرى والمعمارى عند مسلمى شبه الجزيرة، لم يكن بأقل فاعلية على ما يبدو فى تطّور الفكر الأندلسى. وتفخر إسبانيا المعاصرة بذلك الجهد الفلسفى، وبالنزوع الصوفى، فى عصورها التشوى بروح الإسلام، وتطالب بذلك كله، وتراه من تراثها الثقافى، وتفسح له من عنايتها مكانا، فتضع ابن رشد، وابن سبعين، وأيضا موسى بن ميمون، إلى جانب فلاسفتها الآخرين، أمثال سينيكا **Séneca**، وتريسا دى أبلة Tresa de Avila، ولم يحل هذا دون أن يعترف ميجيل أسين بلاثيوس* العلامة المتخصص فى

* سينيكا (٢-٦٦م) ولد فى قرطبة، ونشأ وعاش فى روما على أيام نيرون، وكان مؤدبا له، وانتحر بأمره، وخلف عددا من الدراسات الهامة فى الفلسفة، واشتهر باسم سينيكا الفيلسوف تمييزا له عن أبيه، وكان عضوا فى مجلس الشيوخ فى روما، ويحمل اللقب نفسه، واشتهر بالخطابة والبلاغة.

* أما تريسا دى أبلة (١٥١٥-١٥٨٢) فراهبة إسبانية، متصوفة، وشاعرة رقيقة، قل=

دراسات الفلسفة الإسبانية العربية فى العصر الوسيط على أيامنا، بعد معاناة طويلة فى مؤلفات رؤساء تلك المذاهب والاتجاهات:
«إن تاريخ الفكر الفلسفى فى إسبانيا الإسلامية هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الإسلامية المشرقة، دون أن تكون له بالتراث المحلى صلة حقيقية يقوم عليها الدليل[١٦]».

وهذا التأكيد، ولا تنقصه القوة أو الوضوح، يبلغ كل مداه، ويصبح أكثر أهمية، إذا أضفنا إليه أن الفلاسفة المسلمين، فى الشرق أو الغرب، كانوا من علماء الكلام فى الوقت نفسه، ولم يكن ممكنا فى إسبانيا، فى نطاق المذهب المالكى المتشدد والمعادى للتجديد، إفساح المجال دوما، دون مخاطرة، أمام الاتجاهات المتحررة، مهما تخفت، والتى ظهرت واستقرت تحت ستار المذهب الشافعى فى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط، وفيما يتعلق بالفكر الفلسفى الإسبانى يمكن أن نقول باختصار إن نموه جاء متأخرا فى الغرب الإسلامى، ولم يأخذ فى الظهور فعلا إلا خلال عصر الموحدين.

ومن الضرورى بلا شك ألا نصمت عن ذكر التأثيرات التى لم تكن مشرقية فى نوعيتها، مثل تأثيرات العلماء اليهود

= من يجاريها من شعراء عصرها، وخلفت وراءها عددا من دواوين الشعر، وتأملاتها، وآخر ضمنته قصة حياتها.

* توفى أسين بلاثيوس عام ١٩٥٤، أى بعد أعوام من محاضرة المؤلف.

الأندلسيين، والذين طرحوا، قبل مواطنيهم المسلمين، مشكلة التوافق بين الدين والعقل، للوصول إلى حلول مختلفة لهما.

أما حميًا التصوف فمن الراجح، فيما يبدو، أنها وجدت ما يبررها فى الظروف التاريخية بخاصة، فمنذ مطلع القرن الثانى عشر الميلادى، وحتى سقوط مملكة غرناطة العربية عام ١٤٩٢ م، لقى اندفاعها الجسور ما يعينه ويغذيه، لا فى تقاليد الجهاد واستؤنف ضد مسيحيى الشمال فى إسبانيا، وإنما - وهو الاحتمال الأقوى - فى تقبل المسلمين الإسبان فى الأوساط التقية لنظام الرباط، وتحمسهم له بخاصة، ففى ذلك الاعتكاف الرهبانى كانوا يوزعون أوقاتهم بين ممارسة الزهد والتدريب العسكرى، وهو ما يذكِّر فى كثير من جوانبه بالمثل الأعلى، وهو رهبانى وحربى فى الوقت نفسه، عند منظمات الفروسية الأولى لمسيحية العصور الوسطى.

وأيضًا، ودائما عن طريق الشرق الإسلامى، أمكن نسخ بعض مؤلفات الفكر الإغريقى الشهيرة، فى العصور الكلاسيكية والهلينية، لحساب مراكز الثقافة فى إسبانيا العربية، وأشرنا من قبل إلى الدور الذى اضطلع به عبد الرحمن الثانى، فى إرسال من يبحث وينسخ له فى العراق تراجم المؤلفات العلمية القديمة، من ثمار فارس واليونان، وإلى سليله الحكم الثانى، وحتى قبل أن يعتلى عرش الخلافة عام ٣٥٠هـ = ٩٦١م يعود الفضل فى الجهود القوية

التى بذلها فى هذا الجانب، وتركت أثرا حاسما فى توجيه الفكر الإسبانى فيما بعد ذلك من أعوام، وبخاصة فى مجالات الطب والعلوم الرياضية.

وكان هذا الخليفة طبقا لما يرويه بالحرف صاعد الطليطلى، فى كتابه طبقات الأمم، وهو كاتب عربى إسبانى من القرن الحادى عشر الميلادى : «هو الذى عمل على جلب المؤلفات الهامة النادرة المتعلقة بالعلوم القديمة والحديثة، من بغداد ومصر وأماكن أخرى فى الشرق، وجمع منها فى أواخر حكم أبيه، وطيلة حكمه نفسه، عددًا يضاهى تقريبا العدد الذى جمعه الخلفاء العباسيون برمتهم، فى وقت أطول بكثير»(١٧).

وبهذه الطريقة كوّن الحكم الثانى مكتبة هائلة فى قصره بقرطبة تضم ما لا يقل عن أربع مئة ألف مجلد، وعددُ الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفى كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لاغير، ونظم شبكة حقيقية من الباحثين عن الكتب والسماسرة والنساخين يجوبون العالم الإسلامى طوله وعرضه، لحساب العاهل الإسبانى، بحثا عن المؤلفات يشترونها أو ينسخونها، وجند فى قرطبة نفسها عددا كبيرا من «الحذاق فى صناعة النسخ، والمهرة فى الضبط، والمجيدين فى التجليد والزخرفة»، استقدم بعضهم من صقلية، وحتى من بغداد، يعملون تحت إشراف موظف كبير من الصقالبة

العاملين فى قصر الخلافة، لإثراء هذه المكتبة الرائعة بنفائس المؤلفات دواما.

وسرعان ما أخذت الطبقة الأرستقراطية فى العاصمة تقلد العاهل الأموى بإنشاء مكتبات فنية خاصة بهم فى قصورهم، ويروى لنا أحد المؤرخين أن مئة وسبعين امرأة كن يعملن يوميا، إذا ذاك، فى كتابة نسخ من القرآن بالخط الكوفى، فى الربض الشرقى من مدينة قرطبة فحسب[١٨].

وكانت عاصمة بنى أمية فى إسبانيا، إبان منافستها المجيدة مع عواصم الشرق العربى، تتمتع فى داخل البلاد وخارجها، بشهرة المجدّ فى طلب العلم، ولم تكن هناك أية مدينة أخرى فى شبه الجزيرة تحلم بأن تزاحمها فى هذا المجال، واحتفظت بهذه الشهرة حتى بعد سقوط الخلافة، وبخاصة تحت حكم المرابطين فى القرن الثانى عشر، وأوجز لنا ابن رشد هذا الواقع فى ملاحظة ذكية، أثناء مناظرة جرت فى مراكش بينه وبين ابن زهر فى حضرة المنصور بن يعقوب، أمير الموحدين.

«قال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة : ما أدرى ما تقول، غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية»[١٩].

ولم يبق كتاب واحد من مجموعة الكتب الرائعة هذه، وجمعها فى القرن العاشر الميلادى، بدافع من رغبة واعية، أمير غنى، صديق للآداب والعلوم، ومنذ بضعة أعوام أشرت إلى مجلد منها يوجد فى فاس، ويحمل تاريخًا جديرًا بالتقدير، وهو عام ٣٥٩هـ - ٩٧٠م، وإشارة إلى أنه نُسِخ للخليفة الحكم الثانى، ودون أدنى شك فإن جانبًا محدودًا من تلك المخطوطات العديدة، ما زال يقبع فى خبايا مكتبات مجهولة، بعد أن أفلت من حملة إحراق الكتب العربية فى إسبانيا المسيحية، والتى قادها الكاردينال ثيسنيروس cisneros، عرّاف الملكة إيزابيل، فى مطلع القرن السادس عشر بعد أن انتهت حرب «الاسترداد» تمامًا.

ولكن هذه المكتبة الخليفية العظيمة تعرضت بعد إنشائها بقليل لعمليات بتر محزنة للغاية، عندما أراد المنصور بن أبى عامر أن يضع حدًا للشكوك التى دارت حول/استقامة معتقده، وأن يصد حركة المقاومة التى أثارتها أوساط قرطبة المحافظة فى الخفاء، فاضطر إلى حسم الأمر فى حركة مسرحية، كان فى قرارة نفسه أول من يدرك ما فيها من تدنيس للمحارم، ويقول لنا صاعد الطليطلى، إن دكتاتور إسبانيا العربية أمر «بأن تحرق وتتلف فى هذه المكتبة كل الكتب التى تعالج المؤلفات القديمة، فقدم بعضها طعمة للنيران، وبعضها الآخر ألقى به فى آبار القصر، أو خبئ فى باطن الأرض، وتحت الحجارة، أو أتلف بأساليب أخرى». إذ أن

هذه الكتب طبقًا لما يضيفه المؤلف نفسه، «لا ينظر إليها الفقهاء بعين الرضا، وينتقدها الكبار، وكان كل من يقرأها متهمًا فى نظرهم بالهرطقة، وملطخ بالزندقة»[٢١] ومن يدرى إلى أىّ مدى أوقف، على نحو محسوس، مسلك المنصور الانتهازى المؤسف، تقدم الغرب العربى منذ نهاية القرن العاشر الميلادى، فى الرحلة التى بدأها لإحياء الشعلة التى أسلمها إليه الشرق الإسلامى!

ومع ذلك، فإن التأمل الفكرى لعالم إسبانيا الإسلامية خلال العصور الوسطى بقى، دون ريب، وعلى الرغم من كبح جماحه الجانب الأكثر أصالة، والنتيجة الأشد وضوحًا، فى إبداع الثقافة الأندلسية، وليدة الثقافة المشرقية مباشرة، وقد كيفها عرب إسبانيا لتوائم بيئتهم الطبيعية والعرقية والاجتماعية، ويظل الإنتاج البكر لحضارة أخذت فى شبه الجزيرة الإيبرية تعى شخصيتها شيئاً فشيئاً، ولكنها تهتم دائمًا بالحفاظ على تقاليد الكلاسيكية سليمة، وعلى الصدارة الأدبية للغة العربية.

هذه الملامح، وهى مختلفة، وجاءت بالضرورة وليدة بنية التربية، والمناخ، والتمازج الذى طال عهده، والاندماج المتزايد بين عناصر السكان، بدأت منذ القرن العاشر الميلادى تعبرَ عن نفسها فى مختلف مقوّمات حضارة إسبانيا الإسلامية تلك، وبعد القرن الخامس عشر فى منطقة إفريقية تأثرت بإشعاعها.

إن استعمال نمط من اللباس متاح للجميع، وهو لون من الحياة

مشروط بالحضرية والميل إلى التجمع فى مدن وضياع، وتنظيم عقلى للخدمات المدنية وغيرها، «كل هذا يجب أن يحدث لتكوين شعب على حدة، ويستطيع القادم من مصر، أو سورية أو العراق، أن يشعر بين أفراده بالتوهان والبلبلة منذ اللحظة الأولى، ولكنه لا يلبث أن يجد نفسه كما لو كان فى بلده ذاته، أو يكاد، وسوف يدرك أن صفته مشرقيًا تخول له هيبة تهيئ له اعتبارًا واحترامًا يبرهنان له، فى بلاغة فريدة، على أن ما بين إسبانيا وغيرها من البلدان القريبة من روابط تشدها إلى مهد الإسلام أبعد ما تكون عن الانفصام.

وحتى آخر أيام مملكة غرناطة ظل إشهار النسب العربى الخالص الدليل الوحيد المعترف فى شبه الجزيرة للاعتراف بعراقة الدم الحقيقية، حتى أن المرء ليتساءل عما إذا كانت إسبانيا فى العصور الوسطى، وهى فى الطرف الأقصى من العالم العربى، لم تكن بالنسبة لهذا العالم نفسه، بين ولاياته الأخرى، ولاية مزدهرة ومتميزة على التأكيد، ولكنها مع ذلك تخضع للقاعدة العامة، فكانت مجرد ولاية معينة، حريصة ومنظمة، وتشارك فى الجهود المنسقة لرواد حضارة عربية واحدة، ظلت هى نفسها من قرطبة إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى بغداد.

ومع ذلك فمن الضرورى ألا نبالغ حتى فى هذا القدر من الأشياء، فمن المؤكد أن إسبانيا كانت ولاية من ولايات الإسلام،

ولكنها ولاية نائية، وفى بعض الحالات خاصة، فقدت قليلاً قليلاً الشعور المحدد والإيجابى، حتى الأخلاقى منها، ولم تعد تذكر البساتين السورية، ولا الواحات العراقية، أو المصرية، وتحولت بمضى الزمن إلى مجرد موضوعات أدبية، تحتفظ بها، وتحرص عليها، الأجيال من الكتاب والشعراء.

ولكن، كانت إسبانيا قبل كل شىء ولاية فى أقصى تخوم الإسلام، تقع فى أوربا نفسها، وفى احتكاك دائم بالمسيحية، داخل وخارج حدودها، مسيحية اختلطت بها، وعرفتها خير من أية دولة إسلامية أخرى، ومهما كان الذى تلقته إسبانيا الإسلامية من المسيحية ضئيلاً، وعلى العكس نقلت إليها الكثير من ثقافتها الذاتية، فقد أتاحت الفرصة لمزيد من التأثيرات المتبادلة بين الجانبين، وبدأ الإحساس منذ اللحظة الأولى، ولا يمكن لأحد إنكار وجودها أبدًا، أو الشك فى استمرارها مطلقًا، على امتداد كل قرون العصر الوسيط.

ولكل هذا سوف نظهر، فيما يلى، أو نحاول أن نبرهن على الأقل، أن مجاورة سكان الأراضى الإسلامية فى إسبانيا للغرب المسيحى، هى التى أعطتهم، قبل أى شىء، والوحيدة تقريبًا، الملامح الذاتية والأصيلة، على الرغم من تعلقهم القوى التقليدى بالمشرق.

● الهوامش والتعليقات :

(١) انظر كتابى : إسبانيا فى القرن العاشر، ص ٢٢.

(٢) جورج مرسيه : مختصر الفن الإسلامى، جـ ١، ص ٢٠٦.

(٣) انظر : هنرى بيريس، النخلة فى إسبانيا، ملاحظات فى ضوء النصوص العربية، فى مجموعة مقالات مهداة إلى جودفروا - ديمومبينس، القاهرة ١٩٣٨، ص ٢٢٥-٢٣٩.

(٤) ويرى دوزى، فى كتابه «تاريخ مسلمى إسبانيا»، الجزء الأول، أن هذه الصراعات لعبت دورًا بالغ الأهمية فى أحداث شبه الجزيرة الإيبيرية.

(٥) حول هذا النص وأنوى نشره مستقبلاً فى سلسلة من الوثائق غير المنشورة عن تاريخ الأمويين فى إسبانيا، انظر كتابى عن : تبادل السفارات، ص ٤.

(٦) وبخاصة الزيادات التى أدخلت على المسجد الجامع فى قرطبة وقد قدم لنا إيلى لامبير عرضًا جديدًا كل الجدة، معتمدًا على الوثائق التى قدمتها له : تاريخ المسجد الجامع فى قرطبة، فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، فى ضوء نصوص غير منشورة، حوليات معهد الدراسات الشرقية فى كلية الآداب بجامعة الجزائر، المجلد الثانى، باريس، ١٩٣٦، ص ١٦٥-١٧٩.

(٧) يوجد تعريف بزرياب فى دائرة المعارف الإسلامية، الملحق، ص ٢٨٥-٢٨٦، كتبه هـ . ج . فارمر.

(٨) لدينا الآن وثائق جيدة عن تركيب ونوع هذا المطبخ، ويعود الفضل فى هذا إلى كتاب عربى صغير طبع فى الموصل عام ١٩٣٤، بعنوان : «كتاب الطبيخ»، ويعرض له من بداية القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى، ولدينا فيما عدا ذلك مختصران عن الطبخ فى الأندلس، وهما غير مطبوعين، ويبدو أنهما من عصر الموحدين.

(٩) أنخل جونثالث بالنثيا : الإسلام والغرب، ص ٤٨-٤٩، نقلاً عن المقرى فى نفح الطيب.

(١٠) خص المستشرق الفرنسى ر. بلاشير هذا الشاعر بدراسة أعطاها عنوانًا : أحد طلائع الثقافة العربية فى القرن العاشر : صاعد البغدادى مجلة هيسبيريس، المجلد العاشر، ١٩٣٠، ص ١٥-٣٦.

(١١) أحمد زكى : بحث فى العلاقات بين مصر وإسبانيا أثناء العصر الإسلامى، فى كتاب : تكريم كوديرا، ص ٤٥-٤٨١ .

(١٢) انظر كتابى : النقوش العربية فى إسبانيا، ص ١١٦-١١٧ .

(١٣) ليفى بروفنسال : صحيح البخارى، طبعة مصورة نقلاً عن مخطوطة لابن سعادة، الذى سكن مرسية عام ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م، باريس، ١٩٢٨ .

(١٤) هنرى بيريس : الشعر الأندلسى فى القرن الحادى عشر، ملامحه العامة وقيمته وثيقة، باريس، ١٩٣٦ .

(١٥) جورج مرسيه : الفن الإسلامى الإسبانى، مجلة هيسبيريس، المجلد ١٣، ١٩٣٦، ص ١٠٧-١٠٨ .

(١٦) انظر : أنخل جونثالث بالنثيا، تاريخ الأدب العربى الإسبانى، الطبعة الثانية، ص ٢٢٠ .

(وله ترجمة، غير أمينة، إلى اللغة العربية بعنوان : تاريخ الفكر الأندلسى).

(١٧) الترجمة الفرنسية للكتاب، وقام بها ر. بلاشير، ص ١٢٥ .

(١٨) انظر كتابى : إسبانيا الإسلامية، فى القرن العاشر الميلادى، ص ٢٣٣-٢٣٤ .

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٤ .

(٢٠) انظر : ليفى بروفنسال : مخطوط من مكتبة الخليفة الحكم الثانى. فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٨، ١٩٣٤، ص ١٩٨-٢٠٠ .

(٢١) صاعد الطليطلى : طبقات الأمم، ترجمة بلاشير، ص ١٢٦ .

الفصل الثالث

إسبانيا المسيحية
والحضارة العربية الإسبانية

ثمة نظرية جديدة، لا تنقصها الأدلة، ولا قوة الإقناع، تحاول أن تحل مشكلة سبق أن طرحها كثيرون من المؤرخين، وهذه النظرية تحاول أن تبرهن على أن غارة الإسلام المفاجئة، وغير المتوقعة، فى مطلع القرن الثامن الميلادى، على اقتصاد العالم اللاتينى، أدت إلى نتيجة فاجعة، لأنها أتت على الرابطة الروحية لهذا العالم، وكانت تبدو أقوى ما تكون صلابة، وهى وحدة البحر الأبيض المتوسط[1]. ومثل هذه الرابطة، ولم تستطع الغزوات الجرمانية التى اجتاحت أرض رومانيا القديمة أن تأتى عليها، كانت قوة الغزو العربى الذى لا يقاوم كافية لكى تأتى عليها، وإلى الأبد، فى سنوات قليلة، وحدث حينئذ أن وجدت نهاية التقاليد القديمة، ومصير أوربا الغربية، نفسيهما فى منعطف أساسى، وحدث هذا فى نفس اللحظة التى حاولت فيها تأثيرات القسطنطينية أن تعطيها شكلا بيزنطيا.

لقد أصبح البحر الأبيض المتوسط، بحرنا القديم mar nostrum بحيرة إسلامية، وفقد الصدارة فى مجال التجارة، والمبادلات الفكرية مع العالم اللاتينى، وبدأ حينئذ عصر مظلم تقلصت فيه الدول الأوزبية، ولم يعد البحر الأبيض رومانيا، وحتى قيام الساعة، وعاشت كل واحدة منها منطوية على نفسها، وأخذت توجه محور حياتها السياسية نحو الشمال تدريجا، وهكذا مضى قرن كامل قبل أن تتكون إمبراطورية شارل عام ٨٠٠م، ومع ضياع البحر الأبيض اتسعت الثغرة المفتوحة بين الشرق والغرب، وبدأ تاريخ أوربا المتعبة القلقة، فى مواجهة إسلام يتدفق حيوية، ويفيض مروءة، إنها بداية العصر الوسيط.

وإذا انطلقنا من هذا الموضوع، وحاولنا أن نعدد ما يمكن أن يكون حدث فى تطور العالم القديم، قبل أن تدخل القوة العربية فيه، فقد ينتهى بنا هذا إلى ما لا نهاية، كما أن من السهل أن نتنبأ بأشد الإفتراضات إيحاء. وفيما يتصل بإسبانيا يمكن أن نؤكد بقوة أن فتح المسلمين لها إنحرف بها بعيدا عن الطرق التى سلكتها فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا خلال العصر الوسيط، ومن جهة أخرى، وكما لاحظ بعض المؤرخين[٢]، أى أحداث ضخمة كان يمكن أن تهز فرنسا لو اجتاحها المنصور بن أبى عامر قريبا من نهاية القرن العاشر الميلادى، فى اللحظة التى كانت فيها إمبراطورية شارلمان تلفظ أنفاسها الأخيرة؟. وقد يسأل أحدهم : لماذا؟ ودون أن

نذهب بعيداً نشير إلى أن المدرسة التاريخية المعاصرة لا تؤكد بقوة على هذا الظرف الغامض، لأن البحر الأبيض المتوسط عندما أصبح بحيرة إسلامية لم يتحول فى الوقت نفسه إلى بحيرة همجية، أو بحر مظلم، كثيف الضباب، لا تقوم عليه أية منارة تنير فى قادم الأيام جوانبه وشواطئه.

إن الهدف الذى نرمى إليه الآن مختلف تماما، وأشد تواضعا : أن نلقى بشىء من الضوء على التداخلات المتبادلة بين الإسلام والمسيحية فى شبه جزيرة إيبريا، تداخلات حقيقية متواصلة، داخل إسبانيا الإسلامية وخارج حدوها، على امتداد العصر الوسيط، وأن نظهر كذلك أن الأندلس لم يكن يحمل السلاح دوما فى وجه جيرانه، حتى فى اللحظة التى بلغت فيها من القوة حدا لا يقهر، وإنما كانت هناك فترات من هدنة حقيقية، قد تمتد أعواما طويلة، أعطى الأندلس خلالها بسخاء أكثر مما تلقى، وبرهن دائما على روحه المتسامح فيما يتصل برعاية المسيحيين، وهو ما لا يحلم أحد بإنكاره اليوم أو الشك فيه.

وما من مكان فى العالم الإسلامى، دون ريب، كانت العلاقات فيه بين الإسلام والمسيحية ضرورة كما كانت فى إسبانيا العربية، لقد حافظ الجانب الأكبر من شعبها، فى القرن الأول من الفتح على الأقل، على الدين الرسمى القديم لدولة القوط، وفيما بعد، حتى بعد أن دخل الإسبان المسيحيون فى الإسلام أفواجا، ليتمتعوا

بنظام مالى أفضل، فإن جانبا لا بأس به من الرعايا المسيحيين ظلوا يشكلون فى المدن الأندلسية جاليات مزدهرة، لها كنائسها وأديرتها، ورئيسها المسئول عنها، وعن ضرائبها، وقاضيها الذى يطبق فى أحكامه القانون القوطى القديم، تحت إشراف الدولة الأموية ويخضع لرقابتها.

أما الملاحقات النادرة التى عانت منها تلك الجاليات فمردها دائما مسيحيون متهوِّسون يرفضون أن يتراجعوا فى تهجمهم على دين أصحاب الدولة. والحق أن أبناء بجدتهم، من القسس أو العلمانيين، كانوا ينكرون هذه التهجمات علناً.

كان الأمير، أو الخليفة فيما بعد، يقر دائما، تقريبا، ما تنتهى إليه الانتخابات التى تجرى لا ختيار كبار رجال الدين، وبخاصة مطران طليطلة وأسقف قرطبة، ويستخدم هؤلاء الأحبار أنفسهم، إذا دعت المناسبة، فى السفارات والمهمات السياسية السرية[٣]، ولم يكن من النادر فى شىء أيضا أن تجد بين رجال الدين المسيحيين الإسبان من أجاد اللغة العربية وتضلع فيها، وحذق آدابها، مما يتيح لنا أن نفترض وجود صلات ودود، ووثيقة، ومتصلة، بين مختلف عناصر السكان، وفيما يتصل بهذا الجانب نملك شهادة معاصرة لا يمكن الشك فى قيمتها، لأنها صدرت عن واحد من أبرز أبطال مناهضة الإسلام نشاطا فى شبه جزيرة إيبريا خلال القرن التاسع الميلادى وهو ألبارو القرطبى

Alvaro، فهو يحزن لعدم اهتمام المسيحيين فى إسبانيا بلغتهم، وجهلهم باللغة اللاتينية، ويمجد فى بلاغة رائعة الثقافة الأندلسية، ولما تزل فى دور التكوين، عندما يصيح فى فقرة ما أكثر ما نستشهد بها : إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويدرسون مذاهب الفقهاء والفلاسفة المسلمين فى عمق، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما ليكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحداً، من غير رجال الدين، يقرأ الشروح اللاتينية التى كُتبتْ على الأناجيل المقدسة. ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء الرسل. ياللحسرة!... إن كل الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها، ويقبلون عليها فى نهم، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها، ويصرحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن كتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها إنتباههم، يا للألم!.. لقد أُنسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد واحدا منهم بين الألف يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة فى اللغة العربية فإنك واجد فيهم عدداً عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالا[٤].

لم تكن الهوة بين الإسلام والمسيحية، خلال العصور الأولى

تلك، لا واسعة ولا عميقة، كما كان يطيب لنا أن نتصورها وأن نؤكدها حتى زمن ليس ببعيد، وحتى الخلاف فى العقيدة لم يقف حائلا دون قيام علاقات زوجية، ولدينا على هذا أمثلة عديدة، حتى فى عصر الفتح نفسه، فقد تزوجت أَيْلُة Egilon أرملة لذريق Rodrigo آخر ملوك القوط، وتكنيها المصادر الإسلامية بأم عاصم، من عبد العزيز ابن القائد موسى بن نصير، وتزوجت Lqmpegia ابنة Eudes، دوق أقيطانية، من منوسة حاكم منطقة جبال البرانس المسلم، ولدينا شواهد عديدة، وفى كل العصور على الزواج المختلط بين شخصيات تنتمى إلى الطبقة الخاصة، أو يجرى فى عروقها الدم الملكى، فالخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر حفيد أميرة مسيحية من الباسك اسمها إنييجة Iniga، وتطلق عليها المصادر الإسلامية اسم درّ، وتزوج المنصور بن أبى عامر، الحاجب الشهير، من إحدى بنات شانجه الثانى Sancho، ملك نبرة، ودخلت التاريخ الأندلسى تحت اسم عبدة، وتركها المنصور تعطى ابنها عبد الرحمن لقبا رومانثيا مألوفا لها، فكانت تناديه شنجول Sanchuelo، وهو تصغير لفظ شانجه، تدليلا له، وكى يذكرها بأبيها(٥).

ومن جانب آخر، ما أكثر ما حظيت قرطبة، فى القرن العاشر الميلادى، بمشهد السفارات القادمة من ممالك الشمال، وكان الأمير أو الخليفة، يزدهى ما وسعه احتفاء بمقدمها، فيلقاها فى أبهى

حلله، ويخرج إليها فى أروع مواكبه، ويحكم لقاءها مراسم دقيقة، ولو أن مثل هذه اللقاءات لا يمكن أن تقارن بالأبهة التى كان الخليفة يظهرها احتفاء بالسفارات التى تأتيه حتى عاصمة ملكه، موفدة من قبل إمبراطور القسطنطينية.

وقد ظلت قرطبة وبيزنطة تتبادلان العديد من السفارات الدبلوماسية، على امتداد القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ووجود مثل هذه العلاقات دليل بنفسه على المكانة العالية التى كانت تتمتع بها الإمبراطورية الأموية فى نظر أوربا المسيحية، فى الشرق والغرب على السواء، لاسيما وأن المبادأة فى هذه العلاقات، ويبدو لأول وهلة أن ليس ثمة ما يسوغها، جاءت من قبل الإمبراطورية تيوفيل، وهو من الأسرة الأمورية، حين أوفد فى عام ٢٢٥ هـ - ٨٣٩م، سفيرًا إغريقيا يحمل إلى الأمير عبد الرحمن الثانى رسالة يطلب فيها سيده من أمير إسبانيا العربية عقد معاهدة صداقة، ويلمح إليه فى الوقت نفسه، فى كلمات مواربة، أن يأخذ فى شرقى المغرب مكان العباسيين ومن يدينون لهم بالولاء إسميا، وهم أغالبة أفريقية.

ولم يجد اقتراح الإمبراطور قبولا لدى الأمير الأموى، ولكن رده كان مؤدبا، وقابل لطف الإمبراطور بمثله، وأوفد إليه سفارة تتكون من الشاعر يحيى الغزال وأحد الفلكيين، ويبدو أن هذا هو مخترع الساعة المائية الشهيرة، ولو أن ثمة رواية أخرى تجعل من بغداد

مكان اكتشافها، وتقول إن هارون الرشيد قدمها هدية إلى شارلمان، وقد استقبل الإمبراطور تيوفيل، والإمبراطورة ثيودورا، رسولى أمير قرطبة فى القسطنطينية، بحفاوة بالغة، وعادا مثقلين بالهدايا للأمير الإسبانى(٦).

وعلى هذا النحو تمت سلسلة من الاتصالات فى المناسبات المختلفة، وأصبح تبادل السفراء بين قرطبة وبيزنطة فى عهد الرحمن الناصر، وابنه الحكم المستنصر، أمرا معتادا، ونعرف أن الأخير منهما طلب من نيسيفور فكاس أن يرسل إليه خبيرا فى صنع الفسيفساء لاستخدامه فى تزيين السعة التى كان يزمع القيام بها فى مسجد العاصمة الجامع(٧)، وكان هذا، وهو منطقى تاريخا، مصدر التأثير الذى مارسه الفنانون البيزنطيون على فن الزخرفة، فى بعض مبانى العاصمة الأموية فى الأندلس.

يحدث أحيانا أن تظهر بغتة سحابة سوداء تعكر صفو السماء الأندلسية لفترة ما، فى مناسبات مختلفة، وفى قمة عصور السلام الداخلى، ومهما يبدو قليلا واهنا ما أحدثه النور مانديون من تأثير فى حضارة الغرب العربى، فى هجوماتهم المستمرة على سواحل شبه الجزيرة، ومهما كانت متباعدة، فإننا لا نستطيع الصمت بسهولة عن ذكريات تلك الغارات الإسكندنافية المفاجئة رغم أنها لم تبلغ فى أية لحظة حد المأساة كاملة، ولكنها جعلت إسبانيا الإسلامية على أهبة الاستعداد دائما، على نحو ما حدث ذلك تماما مع الخطر

الفاطمى، وكلا الأمرين أرغمها على أن يكون لديها أسطول بحرى قوى، وبحارة مهرة، وبناء قلاع دفاع قوية وصامدة على امتداد شواطئها[٨].

ومن الأمور المتفق عليها أن غارات هؤلاء الفيكنج، أو المجوس كما يسميهم المسلمون، لم تترك وراءها أى أثر فى البلاد، ولكن هذا التأكيد يحمل طابع العجلة، إذا لم نبرهن عليه بصورة قاطعة، وطبقا للإشارات الواردة فى بعض النصوص العربية، فإن النورمان لم يعودوا جميعا إلى البحر ثانية، وإنما تخلفت منهم جماعات صغيرة، استقرت فى بعض أنحاء شبه الجزيرة، وبخاصة فيما حول إشبيلية، بموافقة سادة المملكة الأموية، وغنى عن البيان أن مرور أجيال منهم كاف ليصهرهم فى بوتقة الأندلس وثقافتها.

إن تأثيرات إسبانيا المسيحية على إسبانيا العربية، قبل أن تصبح هذه تابعة سياسيا لأفريقية، لا يمكن أن تقارن، ولو من بعيد، بتأثرات إسبانيا العربية فى إسبانيا المسيحية، حتى ولو أخذنا فى الاعتبار الإضافات المتفرقة فى عالم الفن، أو المتصلة ببيزنطة النائية، والتى تمكن الأندلس من بسطها طوال تلك العصور ذاتها على ممالك الشمال الإسبانية، وعلى نحو أقل، وبطريقة أدنى مباشرة، على جنوب فرنسا.

لقد كان الإشعاع الذى تمارسه قرطبة يومها على المسيحية الغربية حقيقة لا يمارى فيها، وهو يبرر من جهة أخرى، لماذا كان

العطاء من جانب واحد طبيعيًا، ولم تكن ثمة مبادلات بين الجانبين، ومنذ ذلك العصر أخذ هذا الإشعاع فى تأكيد ذاته، على نحو ما تؤكده لنا بعض الوثائق، ولو أنها لسوء الحظ قليلة جدا، فنحن نعرف أن الشاعرة السكسونية روزيتا Hroswtha نظمت أبياتا من الشعر، فى منتصف القرن العاشر الميلادى، وهى فى ديرها منعزلة بألمانيا، تصف عاصمة الأمويين الأندلسيين بأنها : «جوهرة العالم الساطعة، مدينة جديدة ورائعة، فخورة بقوتها، شهيرة بمباهجها، مزهوة بما تملك من خير وفير»* وأن أوتون Oton الأول إمبراطور جرمانيا أرسل جان جورز سفيرا إلى عبد الرحمن الناصر عام ٩٥٦م، وينقل إلينا مترجم حياة هذا السفير أن الدهشة غمرته عندما وجد نفسه وسط أضواء الحضارة القرطبية؛ رغم أنه كان يعرف عنها من قبل أنها رقيقة ومصقولة[٩].

وعندمانبحث عن طبيعة هذه المؤثرات ندرك أنه لا يجب أن نغفل فيما يتصل بالجانب الاقتصادى الاجتماعى لإسبانيا الإسلامية بعض الأشياء التى تخلفت من عصر القوط، وصمدت خلال الدولة الإسلامية، فلم يكن العرب بالتأكيد هم أول من أقام نظام الإقطاع فى الأندلس، وكان قاعدة الاسترقاق الزراعى، وبالتالى أساس نظام الرق فى العصور الرومانية، ولم يزد العرب على أنهم

* اقتصر المؤلف على جملة واحدة وهى «جوهرة العالم» وأتينا على الفقرة كاملة.
(المترجم)

رسخوا هذا النظام على نحو ما كان فى أيام ملوك طليطلة من القوط*.

وقد استطاع كبار الملاك الذين ينحدرون من أصول نبيلة أن يحتفظوا بتلك الأملاك الواسعة عن طريق المصاهرة مع الأسر العربية، وأتاحوا لسادة الأندلس الجدد أن يفيدوا من هذا النظام عن طريق الاستغلال، وعلى الرغم مما فى هذا من قسوة إنسانية تقرب بالفلاح الذى وُلد حراً من حالة العبودية، فقد سبق له أن أظهر مزاياه لزمن طويل.

لقد انصرف عرب شبه جزيرة إيبريا، فى المقام الأول، إلى الحفاظ على التقاليد السورية سالمة فى موطنهم الجديد، وبعدها أخذوا مما جدد العباسيون فى نطاق الحياة، ودون أدنى شك تخيروا قليلا مما وجدوا من حضارة الذين سبقوهم مباشرة على نحوما وجدوها لحظة افتتاح الأندلس، وإذا تركنا جانبا بعض الإشارات العابرة فى التنسيق المعمارى للمبانى القديمة، فليس لدينا فى كل الحالات ما يبرهن على ذلك، ومن والواضح أن ثقافة المستعربين أصبحت الوارث الوحيد للتراث القوطى، ومع ذلك فحين تتميز

* الأمر هنا، فيما أرى، يحتاج إلى فضل بيان: ليس حقا أن المسلمين أبقوا على الإقطاع نظاما فى الجانب الإسلامى من الأندلس، ولم يعرفوا لاتقليدا ولاعادة ولادينا نظام رقيق الأرض، ومصدر الرق فى الإسلام هم أسرى الحروب وحدهم. نعم، إنهم تركوا المسيحيين الأندلسيين وماهم عليه فى إقطاعهم، وهو إقطاع لم يستمر إلا سنوات الفتح الأولى ثم تلاشى مع الزمن. (المترجم)

عن الثقافة الإسلامية تصبح فى أعلى درجاتها فقرا وركاكة.

وثمة تأثير آخر ليس من السهل تحديد مجاله أيضا، ولكن لا يجب إهماله عند الحديث عن إسبانيا الإسلامية، فى هذه الفترة، وهو الأثر الذى استطاعت أن تحدثه فيها، خلال فترة طويلة، الإضافات المتوالية التى حملها معهم صقالبة أوربا[١٠]، ومن الضرورى أن نمتد بمدلول هذا اللفظ لكى يعنى ما نفهم من كلمة رقيق بالفرنسية Esclave، ويطلق لفظ الصقالبة على الرقيق من الأوربيين الذين كان يشتريهم المسلمون فى إسبانيا، ليزيدوا بهم جيوشهم عددا وقوة، وفى بعض الحالات ليكونوا خدما وقهرمانات داخل القصور، وبلغوا فى القرن الحادى عشر الميلادى بخاصة عددا هائلاً، فكان منهم فى قرطبة وحدها، وفى بعض الحالات، خمسة عشر ألفا أو يزيدون، وكان يؤتى بهم من بلاد أوربا الوسطى والجنوبية، ومن شواطئ البحر الأسود، ومن كلابر ولومبارديا، وغيرها، وكان من بينهم أيضا من تعود أصولهم إلى شمال شبه الجزيرة.

أما الخصيان، وهم المعينون لخدمة الحريم، فكان التجار من اليهود يأتون بهم لبيعهم فى الأندلس، وكان لهم صيادون ومعامل لخصائهم فى جنوب فرنسا، وفى مدينة فردان منها بخاصة، وكثيرون من هؤلاء الصقالبة أعتقوا، وأصبحوا أحرارا، وبالذات أولئك الذين كانوا يعملون فى قصر الخلافة، وبعد عتقهم ظلوا

يواصلوان العمل بين خاصة خدم الخليفة، ويحملون لقب «موالى». وما لبثوا أن بلغوا شأوا عاليا، ومكانة ممتازة، فى نطاق الإمبراطورية القرطبية، وسرعان ما أصبحوا طبقة حقيقية، ذات امتيازات ملحوظة، وفيما بعد، عندما تهاوت الخلافة، كونوا حزبا معارضا، يناهض الجماعة العربية الأندلسية، والحزب البربرى معا، وفى نفس الوقت، بانتظار أن يستطيع الأشد بأسا من بينهم تكوين إمارات صغيرة مستقلة، تكون لهم أنفسهم، على امتداد الساحل الشرقى لشبه الجزيرة، فى دانية، وبلنسية، وطرطوشة.

وقد اعتنق هؤلاء الصقالبة جميعا الإسلام، وفى سرعة فائقة، ونملك على ذلك شواهد لا يمكن إنكارها، وكانوا يُحملون إلى إسبانيا صغارا، فتعلموا لغات الأندلس، واتخذوا الطابع الأندلسى كاملا، ومع أنهم فقدوا كل اتصال مع بلادهم الأولى، إلا أنهم استطاعوا مع ذلك أن يحملوا، على الأقل، بعض التقنيات الجديدة، وبداهة جاءوا معها فى الوقت نفسه بالألفاظ التى تتطلبها هذه، مهما كانت قليلة، ولا صلة لها بالتراث الثقافى.

***

إن أعمق أثر مارسته شعوب شبه الجزيرة الأصلية، فيما يبدو، خلال العصور الوسطى، كان فى لهجات الأندلس الجارية، على جانبى الحدود الإسلامية، ففى البدء أدى الاحتكاك الدائم بين الإسبان وبين العرب والبربر المتعربين إلى أن يتعلم هؤلاء اللهجة

الرومانثية اضطرارا، وهى متفرعة من اللغة اللاتينية - الإيبرية، لكى يتحدثوا بها عندما تضطرهم الظروف، وكانت هذه اللجهة الوسيلة الوحيدة للتعبير التى تعرفها عامة الشعب الأصلى فى المدن، وتجمعات المسيحيين فى الضياع، أو المولدون الذين كانوا يسكنون الريف حينئذ. وفيما بعد كان على هذه اللغة الرومانية أن تمد عامية أهل الأندلس بالجانب الذى تحتاج إليه من المفردات ذات الدلالة الحسية.

ونحن الآن على يقين ثابت تقريبًا من أن نسبة عالية بين المسلمين فى الأندلس كانت، خلال كل عصور الإسلام، تتكلم لغتين، وتستخدم العربية والرومانثية فى سهولة، داخل بيوتهم أو خارجها فى الشارع، وكان المسلمون الجدد؛ كما هو منطقى، يكونون الجمهرة الغالبة بين مزدوجى اللغة هؤلاء، ولكن حتى الذين ينحدرون من أصول عربية خالصة، لم يكونوا يأنفون، فيما يبدو من استخدام اللغة الرومانثية فى أحاديثهم الأسرية، وبين كل طبقاتهم الاجتماعية، بما فى ذلك، قاعات قصر الخلافة نفسه[١١]، مع مراعاة أن هيبة اللغة العربية المكتوبة ظلت فى عليائها دائمًا لم يمسسها وهن أبدًا.

فيما يتصل بتغلغل الرومانثية فى عامية أهل الأندلس لدينا شواهد لا يمكن دفعها، فقد سجلتها بين مفرداتها المعاجم العربية اللاتينية، أو العربية القشتالية، التى ألفت فى إسبانيا نفسها خلال

العصور الوسطى، وليس أقل منها برهانًا وإقناعاً المفردات العديدة، ذات الأصل الرومانى، والتى تعيش حتى يومنا، ويمكن التقاطها فى لهجات شمال المغرب العربية، أو فى المدن الكبرى ذات التقاليد الإسبانية، مثل فاس وطنجة وتطوان.

وحتى لو أسقطنا من حسابنا الكلمات الرومانثية التى تعرض لنا خلال كل صفحة من ديوان ابن قزمان مثلا، يكفى أن نلقى نظرة خاطفة على أعمدة المعاجم التى أُلفت فى إسبانيا المسيحية تسهيلاً لمهمة المبشرين، عندما بدأت هذه تحمل مسلمى المقاطعات التى استردتها على اعتناق الكاثوليكية قسرًا، لكى نقدر مدى التأثير الذى مارسته اللهجة الرومانثية فى تكوين اللهجة العامية التى كان يتحدث بها مسلمو شبه الجزيرة، تاركين جانبًا بالطبع المصطلحات الدينية المسيحية، وتكاد تكون كلها عربية تقريبًا. وهذه اللغة فرضت عليهم عديدًا من المفردات حلت مكان كلماتهم الكلاسيكية التى تقابلها فى المعنى، وفرضت أيضًا من خواصها الصرفية والنحوية، وما يتصل بالاشتقاق وتركيب الجملة، وشاع استعمالها، مثلها فى ذلك مثل التعابير العربية الصرفة، أو التى تعربت منذ زمن طويل. ومن بين هذه التأثيرات ما يتصل بأواخر أسماء الفاعلين، والنسبة وأسماء التصغير، فكانت العامية الأندلسية، تستخدم، مثلا، العلامات الرومانثية ella و ero فتطلق على من يتولى إدارة الفندق لفظ « فندقير Fundakair »، بدل

أن تقول «فندقى»، وتقول فى تصغير حارة Hara حارِيَّة Harella بدل جويرة وتطلق حارة فى عربية أهل الأندلس على الحى، أو الربع، أو المحلة. ومع ذلك يجب أن نشير إلى أن ما أعارته العربية الإسبانية إلى اللغة الرومانثية خلال العصور الوسطى كان محدودًا، إذا قارناه، ولو من الناحية العددية، بما قدمته اللغة القشتالية، وكانت حينئذ فى طور الرسوخ، إلى اللغة العربية من مفردات خلال الفترة نفسها.

هذه الاستعارات الأخيرة أعطت اللغات القومية المعاصرة فى شبه الجزيرة القشتالية والبرتغالية والقطلونية، أريجًا عبقًا ونفاذًا من اللغة العربية، وهى تثير الفضول، وتستدعى الدراسة، ودراستها لا تقف عند حد دلالاتها اللغوية، وما يمكن أن تضيفه إلى فقه اللغة فحسب، وإنما تكتسى طابعًا مهمًا ومتميزًا إلى حد كبير، حين تمتد بها إلى ما هو أبعد من هذا، فتشمل وقائع الحضارة التى بررت مثل هذه الاستعارات اللغوية، وتقدم لنا الدليل ضمنا، ولكن لا سبيل إلى إنكاره، على التأثير العميق الذى مارسته الثقافة العربية الأندلسية على الشعوب المسيحية، فى الكتلة الإيبرية نفسها.

ودون أن نرغب فى تبسيط المسألة إلى أبعد حد، ونحن نطرح موقف أصول اللغة الإسبانية، وهى مشكلة معقدة، يمكن أن نبرهن على أن هذه اللغة، واشتقت فى أصولها من اللهجات

الإيبرية اللاتينية، التى أصبحت تشكل الرومانثية الإسبانية، وجدت نفسها مضطرة طيلة مراحل نموها، وحتى القرن التاسع الميلادى على الأقل، إلى أن تأخذ من اللغة العربية كل ما كان ينقصها حينئذ، لتستطيع التعبير عن المفاهيم الجديدة، وبخاصة فى مجال المؤسسات والنظم والحياة الخاصة، والبرهنة على هذا غنية بالشواهد الواضحة على نحو فريد.

وحين نلقى نظرة على مصطلحات العصر الوسيط، وحتى فى العصر الحديث، المتصلة بالنظم المدنية أو العسكرية فى إسبانيا، فسوف نكتشف فيها عددًا ضخمًا من المفردات ذات الأصل العربى، ففى رُتَب الجيش تطلق كلمة الفارس Alferaz العربية حتى الآن على رتبة الملازم، ومقدمة الجيش يطلق عليها الطليعة Atalaya، وعلى المؤخرة الساقة Zaga وغيرها.

ومازالت كل المفردات تقريبًا المتصلة بالتحصين تحتفظ إلى الآن بنفس المعنى الذى كانت عليه فى العصر الإسلامى، ومازالت اللغة العربية تحتل مكانًا هامًا فى مصطلحات المعمار الفنية، فالبناء يتأخذ الاسم العربى نفسه albanil، والملاط يطلق عليه الاسم العربى طابية tapia، ولفظ الطوب دخل بنفس مفهومه العربى adobe.

وتأثير العربية ليس بأقل وضوحًا فى المفردات المتصلة بمؤسسات الدولة، فالضرائب يطلق عليها المصطلح العربى القبالة alcabala،

وحتى وقتنا الحاضر يطلق على رئيس البلدية اسم alcalde، وهى لفظ القاضى العربى أصابه تحريف بسيط، وكان مسيحيو شمال إسبانيا يستخدمون فى الوقت نفسه الكلمات العربية التى تدل على المناصب المدنية مثل : صاحب المدينة Zalmedina، وصاحب الشرطة Zavazorta : وخلال زمن طويل كان يطلق على الموظف المكلف بضبط المكاييل والموازيين اسم المحتسب almotacén، وهو لفظ مأخوذ من العربية مباشرة[١٢].

سوف تطول بنا الرحلة بعيدًا، وربما أدى بنا الإسهاب إلى الملل، إذا حاولنا أن نستقصى المفردات التى دخلت لغة الحياة اليومية، ومن ثم سوف نقتصر هنا على الإشارة إلى الأنواع المتعلقة بمعانى الكلمات، والتى يمكن أن تُلمح إلى الجانب الأكبر من هذا التأثير، ومع ذلك نُذكر فى إيجاز مختصر بالدور الكبير الذى قامت به اللغة العربية فى أسماء الأمكنة، ولما تزل قائمة حتى وقتنا هذا، فهو يدلنا، وبخاصة فى جنوب شبه الجزيرة، على أن الأسماء العربية غطت على الأسماء الإيبرية القديمة فى أحايين كثيرة، ثم أتت عليها أخيرًا، ولا تزال الأسماء العربية الأصل حية ومتغلبة فيما يتصل بالأنهار، مثل : الوادى الكبير Guadalquivir، أو الوادى الأبيض Guadaviar، وأسماء الحصون، مثل : المدور almodavar، أو حصن الحجر Iznajar، وأسماء المدن مثل : مدينة سالم Medinaceli، وقلعة أيوب Calatayud، أو البسيطة albacete.

ولا تزال العربية باقية حتى يومنا فى لغة الفلاحين الصميمة، وبخاصة مفردات بعض المصطلحات التقنية الزراعية، وتظهر مرة أخرى فى المقاييس والموازين الريفية أيضًا، سواء ما اتصل منها بقياس الأرض ومساحاتها، أو أوزان المحاصيل وقدرها. وفيما يتعلق بالرى تعود الطرائق المتبعة إلى العصر القوطى، دون أدنى شك، وتختلف فى تفاصيلها عن الطرق المتبعة فى شمال إفريقية ومصر بخاصة، وبفضل طرق الرى هذه مازالت الأراضى فى شرقى إسبانيا تحرث على نحو ما كان عليه الأمر أيام المسلمين. وهذا لا يعنى أن مصطلحات الرى ليست عربية، إنها عربية كلها تقريبًا، ما عدا الشاذ النادر منها، ابتداء من كلمة الناعورة noria، وهى لفظة انتقلت من الإسبانية إلى الفرنسية، وكذلك فى المفردات الخاصة بصيد البحر، وبخاصة حين تتم ممارسة الصيد بالشباك، أو المضربة كما تسمى فى العربية، وهى كلمة دخلت الإسبانية فى صورة almadrabas وانتقلت إلى اللغة الفرنسية فى صورة madragues.

وما تحتويه معاجم النبات من المفردات العربية لا يقل نسبة عن ذلك. فأغلب أسماء الفاكهة والزهور التى تزرع فى إسبانيا حتى الآن تشهد بما أخذته الإسبانية من العربية مباشرة من أسماء، وهذه بدورها أخذتها من الفارسية، وعدد منها عبر جبال البرانس، فانضم إلى المعجم الفرنسى، مثل: البرقوق، وهى المشمش،

ودخل الإسبانية فى صورة albaricoque، وفى الفرنسية abricot، والزعرور azerole، والياسمين jazmin والقطن algodon، والزعفران azafran، ومازال الزيتون يحمل اسمه العربى aceituna، وكذلك الزيت aceite، ويرد على الخاطر فيما يتعلق بهذه الثمرة ومشتقاتها: لماذا لم تحمل لفظها اللاتينى، كما هو الحال فى اللغة الفرنسية، ما دامت زراعة الزيتون لم تكن مما أدخله العرب فى أسبانيا.

وتدين اللغة الفرنسية للغة العربية، عن طريق الإسبانية، بعدد من أسماء الألوان، لا صلة له بأسماء الثمار أو الزهور، مثل كلمة أزرقazur، والأصهب alezan، وقرمزى carmaisie، أو شقائقى ecarlate، وكان مصير هذه الكلمة بالغ الغرابة، لأن الكلمة التى تقابلها فى العربية الإسبانية جاءت بدورها، على الأرجح من الكلمات اللاتينية Sigiilatus.

واللون الشقائقى، كما هو معروف، كان يعنى فى الأصل قماشًا من الحرير انتقل فن صناعته، دون ريب، من العراق إلى إسبانيا فى القرن التاسع الميلادى. وأسماء الأقمشة فى الأندلس الإسلامى تكاد تكون كلها، على حد سواء، ذات أصل أسيوى عربية خالصة أو مأخوذة من اللغة الفارسية، ذات صلة بالمدينة التى ازدهرت فيها صناعتها بالمشرق، ومعظم هذه الأسماء أخذ طريقه إلى إسبانية العصور الوسطى، وإذا كان معظمها قد استقر الآن فى

زاوية النسيان، فلم يبق منها مستعملا إلا نسبة صغيرة، فلأن الأذواق تغيرت، ولأن الأقمشة الحريرية، ذات القيمة العالية، وكانت ذات شهرة فائقة فى أوربا منذ عشرة قرون، قد تراجعت ولم تعد النموذج المفضل منذ زمن طويل.

وفى ذلك الوقت فى إسبانيا الإسلامية، كانت الألفاظ المتصلة بقص الشعر وتسريحه، والملابس وتفصيلها، والأحذية بأنواعها، عربية كلها على وجه التقريب. ولكى يتحقق المرء من هذا يكفى أن يلقى نظرة على الوثائق المحفوظة عن ذلك العصر، وبخاصة ما اتصل منها بعقود الزواج. فملابس السيدات المسيحيات تزدان من قبل أن تسقط إسبانيا الإسلامية، وحتى بعد أن استردها المسيحيون على حد سواء، بأروع وأغلى الملابس العراقية، وكانت تحمل أحيانًا اسمها العربى نفسه، فيقال: الجبة algubas، والدراعة adorras، وهى جبة ذات أزرار، واللحاف allihafes، ويعنى المعطف من الفراء، والمبطنة mobatanas وتطلق على قطع الملابس المبطنة وغيرها. ويسمى القماش المقصب al vexi، والنسيج الحريرى الموشى الطراز altiraz.

وكانت المجوهرات كذلك تحمل طابع التأثير العربى فى أسمائها نفسها، وحازت قرطبة وإشبيلية قصب السبق فى ما يتعلق «بالموضة» ويمكن أن نقول الشىء نفسه عن السجاد والصناديق والأقداح. وكانت تشكل فى ذلك وقت عماد الأثاث فى بيوت

الخاصة والطبقات الموسرة، فى إسبانيا الإسلامية وممالك الشمال المسيحية على السواء[١٣].

* * *

من نافلة القول، فيما يبدو أن نؤكد من جديد على الأهمية الاجتماعية المرتبطة بهذه التأثيرات كلها، وعلى أن جمعها وتصنيفها يشهد بما وراء ذلك من فائدة تتجاوز الظاهرة اللغوية نفسها، وكلها تبرر أفضل من أية وثيقة تاريخية أخرى نملكها، مدى واتساع الإشعاع الحضارى الذى مارسته إسبانيا العربية على إسبانيا المسيحية والبلاد المجاورة لها، على نحو يشبه، وإن يكن هذا أشد كثافة، وأطول زمنًا، الدور الذى قامت به صقلية العربية النورماندية فى تأثيرها على إيطاليا ما قبل عصر Trecento.

هذه التأثيرات كلها أبلغ من أى برهان فى بيان مدى ما بلغته ثقافة الدولة الأموية من سيادة وتأثير فى شمال شبه الجزيرة، وهى بلاد دون الأندلس الغنى جمالا وخصوبة وحظًا من ثروات الطبيعة. وبفضل هذه التأثيرات يستطيع الخيال، دون خطر أن يقع فى الوهم، أن يسترجع صورة سيدات برغش Burgos، أو ليون Leon، وهن يمطرن بأسئلتهن سفراء بلاط بلادهم، إثر عودتهم من بعض المهمات الرسمية فى الأندلس، وقد نفد صبرهن، لمعرفة أنواع الأقمشة، والألوان الدارجة، والأنسجة المقصبة الثقيلة، ومبتكرات العاج وأحجار الكهرمان السوداء،

وقنانى البللور المصقول، التى كان تجار قرطبة يعرضونها فى أسواقهم[١٤].

لم يتوقف إشعاع الثقافة الأندلسية فى الأراضى المسيحية بعد أن بلغ أقصى توهجه فى القرن العاشر الميلادى، ولم يأخذ فى التلاشى بعد أن بلغ القمة، وإنما على العكس واصل تأثيره حتى القرن الخامس عشر الميلادى، وغطى وهج ضوئه كل أنحاء شبه الجزيرة، ولم يفعل ملوك قشتالة وملوك أرجون، دون أدنى شك أيضًا، شيئًا لكى يردوه عن ممالكهم، بل على النقيض من ذلك، شجعوا هذا الإشعاع، وتبنوا هم أنفسهم مظاهره فى حفلات بلاطهم، ورحبوا بشتى المبتكرات المأخوذة مباشرة من حضارة جيرانهم المسلمين، ومن الثابت المعروف أن عواهل إسبانيا كثيرًا ما كانوا - مثلا - يضربون عملتهم، خلال العصور الوسطى، وأحد وجهيها عربى الكتابة، والثانى قشتالى[١٥].

ويلاحظ أن السيد القنبطور أخذ بمفاتن الحضارة الإسلامية الأندلسية، فى أواخر حياته، عندما استقر به المقام فى مدينة بلنسية سيدًا عليها، لا ينازعه سلطانها أحد، بعد أن انتهى من حملاته الحربية العديدة التى كان يقودها طوال حياته لحساب الأمراء المسلمين، أو ضدهم على حد سواء، فتعرب بقدر لا بأس به فى حياته الخاصة، وفى طابع نظامه قائدًا وأميرًا[١٦]*.

* درسنا هذا الجانب من حياة السيد تفصيلا فى كتابنا : ملحمة السيد : دراسة مقارنة، الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٨٣.

وواقع فرناندو الثالث لا يقل غرابة عن السيد، وكذلك حال ابنه الفونسو العاشر، الملقب بالعالم، وقبلهم بزمن طويل اندهش قرطبى مسلم، استقر فى مدينة تطيلة Tudela، فى مقابلة له جرت مع شانجه Sancho كونت قشتالة، المتوفى عام ١٠١٧ م، وهى طبقًا لرواية ابن حيان: «عندما وصلنا إلى خيمته وجدناه جالسًا على دكة مزينة ومنجدة، ويرتدى ملابسه على الطريقة الإسلامية، لا يميزه عن المسلمين إلا أنه كان حاسر الرأس»(١٧).

وأبطال حرب «الاسترداد» هؤلاء، ولم يتسرب الملل إلى نفوسهم وهم يقاتلون من أجل وطنهم وعقيدتهم، ليسوا دون غيرهم - كما رأينا - فى الإعجاب بحضارة أعدائهم السياسيين التقليديين، ويعترفون بكل ما كانت تدين به بلادهم نفسها لثقافة هؤلاء الأجانب الذين يرغبون فى إجلائهم عن أرضهم، وسوف نرى فيما بعد ذلك بكثير، أن شارل الكبير (كارلوس الخامس فى التاريخ الإسبانى) حاول، بدون جدوى طبعًا، أن يقف فى وجه مشاريع تحويل جامع قرطبة الرائع إلى كنيسة، وكان يأمل فى أن يراه سالمًا كما هو لم يمس.

وعلى الرغم من أن فرنسا كانت خلال العصور الوسطى فى عزلة عميقة بسبب وضعها الجغرافى، إلا أن هذا لم يحل، مع ذلك، دون معاناتها فى بعض النواحى لألوان من تأثير حضارة الإسلام فى الأندلس على بعض الممالك المسيحية فى شمال إسبانيا،

ذلك أن الحملة الصليبية الفرنسية عام ٤٥٦هـ=١٠٦٤ م، واستهدفت مدينة بربشترو الإسلامية فى مقاطعة أرجون، كانت تضم فى صفوفها فرسانًا عديدين، قادمين فى الجانب الأكبر منهم من المقاطعات الفرنسية بقيادة أمير نورماندى، فاجأت المدينة، واستباحت حرماتها نهبًا وسلبًا، ثم قفلت راجعة عبر جبال البرانس، تحمل معها أعدادًا هائلة من الأسرى المسلمين، وليس ثمة ما يمنع هنا من الظن بأن هؤلاء الأسرى قاموا فى المدن التى سيقوا إليها، قبل أن يذوبوا فى جمهرة السكان، بتعليم الذين حولهم بعض الفنون والأساليب ونماذج الحياة التى تختلف عما عليه أسيادهم وما خطرت ببالهم يومًا*.

أغلب المفردات العربية التى أخذت طريقها إلى الفرنسية، سلكت طريقها عبر الإسبانية، على نحو ما رأينا من قبل، ومن المحتمل أن كثيرًا من التأثيرات التى تلقتها فرنسا عن الإسلام قبل زمن الحروب الصليبية فى المشرق، أو حتى أثناءها، سلكت الطريق نفسه. ولم يتحدد بعد بطريقة كافية التأثيرات المباشرة، أو غير المباشرة، التى تدين بها فرنسا العصور الوسطى للأندلس الإسلامى، وهى تأثيرات نلمح آثارها ابتداء من القرن الحادى

---

* درس نيكل مظاهر هذه التأثيرات فى مقدمة ترجمته لطوق الحمامة إلى اللغة الإنجليزية، وقد ترجمنا هذه المقدمة إلى اللغة العربية، وسوف يتضمنها كتابنا: «فى الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية»، ويصدر عن دار المعارف عام ١٩٨٦.

عشر، حين كان رهبان طائفة كلونى Cluny، وطائفة سيسترسيان Cisterciens الدينيتين، لا تتوقف رحلاتهم بين مقرهم فى فرنسا وأديرتهم فى طليطلة، مما يزيد فى تسهيل التبادل الثقافى بين البلدين، إلى جانب قوافل الحجاج الشهيرة، والتى كانت تتجه إلى كنيسة شنت ياقب santiago فى شمال غربى إسبانيا.

يجىء التأثير الفنى فى مقدمة التأثيرات التى عانت منها إسبانيا وفرنسا فى ذلك العصر، وربما كان أشد وضوحًا، ولقد برهن إميل مال Emile Mâle فى دراسة مستنيرة ومستفيضة على وجودها، وتتبعها على جانبى جبال البرانس، وأثبتت أبحاثه هذه أن الفن الرومانى فى أعلى العصر الوسيط يدين لفن ما قبل القرن الثانى عشر الميلادى فى إسبانيا الإسلامية، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بسلسلة كاملة من الأخذ، تتصل بنظام الزخرفة فى داخل الأبنية وخارجها، أكثر مما تمس التنسيق المعمارى بمعناه الدقيق، ولم يكن الفن الإسبانى الإسلامى، بلا شك، الوحيد الذى لعب دورا مؤثرًا فى الفن المسيحى فى رومانيا الغربية، قبل أن ينتشر الأسلوب القوطى أو الأوجيفالى Ogival وبخاصة فى قطلونية حيث رافقته إضافات لومباردية وفرنجية، وحتى شرقية، ولم يقلل ذلك من حدته ولا من قيمته. وقد تطورت الفنون الوسيطة،وفى أغلب الأحيان كانت تساعد على قيام تلك العلاقات فى شبه الجزيرة نفسها، وتميزت باسم خاص، طبقًا للأمكنة والعصور، أو تبعًا

لأصول الأساتذة الذين مهروا فيها، وتميز من بينها فن المستعربين los mozarabes، وفن المدجنين los Mudegeres.

كان فن المستعر بين أقدم الاثنين، وظهر فى إسبانيا المسيحية منذ بداية القرن التاسع الميلادى، لكى يستقر فيها بصورة نهائية تقريبًا، ويشغل مكان فن أكثر قدمًا، يدعى أحيانًا الفن الأشتورى نسبة إلى أشتورياس Asturias، مقاطعة فى شمال إسبانيا، وهو مشبع تمامًا بالتراث القوطى الذى أخذ مع ذلك مسحة شرقية على نحو ما. وقد درس غومث مورينو Gomez Moreno(١٨)، على نحو مستفيض، كنائس المستعربين التى قامت فى قشتالة وليون وجليقية، خلال عصرى الإمارة والخلافة الأمويتين فى الأندلس، ووجد أنها تتميز دائمًا باستخدام العقود التى ترتفع فوق أقواس على شكل حدوة حصان.

عَبْر فن المستعربين، أو عن طريق فن الخلافة فى قرطبة مباشرة، اقتبس الفن الرومانى بلا ريب جزئيات عديدة لتزيين كنائسه، مثل استخدام الكشفات تحت الطنف، وهى طريقة فى تزيين الأعمدة نحتًا، والقوس ذات المنحى الخارجى، والقبة المضلعة، وكلها تومىء إلى ما هو جوهرى فى هذه الذكريات، وقد عكف إيل لامبير Elie lambert فى دراسة له على تحديد هذه العلاقات، ووجد نفسه مضطرًا إلى تقرير الحقيقة التالية: «إن مهندسى البناء والمزخرفين المسيحيين فى إسبانيا وفرنسا، على امتداد

عصر الفن الرومانى، اقتبسوا على التأكيد عدداً وفيراً من خيرة أشكال فن الإسلام الإسبانى المغربى، ولكنهم دائماً كانوا يقلدون هذه الأشكال فى حرية واسعة، أو بمعنى آخر يمكن القول أنهم كانوا ينقلونها بروح يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الروح الذى ألهم غيرهم إبداع هذه النماذج»[١٩].

وقد تنطبق هذه الملاحظة نفسها على المعمار غير الدينى، وهو فن لم يدرس بعد، على الرغم من أن عددًا من الآثار المدنية العظيمة، والمبانى العسكرية، والمنشئات ذات النفع العام، كالجسور والقنوات المائية المعلقة التى يرجع تاريخ إنشائها فى إسبانيا إلى العصور الوسطى. ويظهر تأثير الإسلام فى إسبانيا كذلك، بصورة لا تقل عمقا، فى تطور الفنون الصغرى، سواء أكان ذلك فى صناعة العاج، على نحو ما نشاهد فى الصناديق الإسلامية الصغيرة والجميلة، أو التى كان يصنعها المستعربون فى ورش قونقه Cuenca وقشتالة، أم فى المصنوعات الذهبية والزجاجية والخزفية، أم فى صناعات الأقمشة والسجاد.

وقد استمرت مراكز صناعة الأوانى المذهبة، أو ذات الشهرة المعدنية، تعمل فى مالقة، أو منسيس بالقرب من بلنسية، إلى ما بعد انتهاء حرب « الاسترداد ». والشىء نفسه يمكن أن يقال عن معامل الأسلحة فى طليطلة، وصناعة الجلود فى قرطبة، وواصلت هذه عملها آخذة فى الازدهار، ومن لفظ قرطبه اشتقت

الكلمة الفرنسية Corrdonnier، للدلالة على صانع الأحذية كما هو معروف، وكانت الكؤوس المقدّسة والصلبـان، وتيجان قشتـالة الملكية، وملابس الرهبان التى تتميز بالفخامة والروعة، وظل الكثير منها فى خزائن الكنائس الإسبانية يحتفظون به، حتى وقت قريب، تزدان فى الغالب بنقوش تتصل مباشرة بالفن الإسبانى الإسلامى، وأحيانا تزدان بنقوش عربية، يمكن أن نتبين بشىء من التدقيق أنها آيات قرآنية أصابها التحريف على يد النساخ مع توالى الأيام، وكثرة النقل والتداول.

* * *

هذا التداخل بين الإسلام والمسيحية فى مغرب العصر الوسيط يمكن إثباته، على نحو أكثر جلاء ووضوحا، فيما يتصل بقضايا الفكر، وسنرى أيضًا فى هذا المجال أن الثقافة العربية الأندلسية ستكون عاملا هاما، ولكن علينا أن نبحث أولا بأية وسيلة استطاعت هذه الثقافة نفسها، على امتداد عصور ازدهارها، أن تلتقط وأن تتمثل جانبا من تراث أوربا، يتمثل فى الحضارة الإغريقية الرومانية، بعد أن اجتاحتها الغزوات الجرمانية، وهذه المسألة، ولا يمكن إخفاؤها، عسيرة الحل إلى حد بعيد، وقد يخيل إلينا أن ثمة تأثيراً ما، غير أننا فى الوقت نفسه لا نستطيع تقديم الدليل المادى الذى لا يقبل الجدل.

لم يبق أمامنا إذن غير أن نختلف طويلا إلى الأدب الإسبانى العربى، وقد رأيناه حتى الساعة خاضعا لتأثير المشرق الإسلامى بخاصة، اختلافا ينتهى بنا إلى تحديد تصور دقيق لحظه من الخاصية الثقافية. ولعل هذه لم تكن ظاهرة عفوية فحسب، لأن صفحات من النثر، ومقاطع من الشعر، تنضح أحيانا بنبر خاص لانألفه فى دراستنا للأدب العربى فى المشرق. والقول «بأن الإسبانى المسلم، فى القرن الحادى عشر الميلادى، يبدو لنا فى شعره كأنه خليط عجيب من القديم والحديث، من الكلاسية والرومانسية، من الشهوانية والصوفية، وحتى من الوثنية والمسيحية»[٢٠] ربما يذهب مع ذلك فى المجازفة إلى حد بعيد، بالقياس إلى ما حققه فى نهاية المطاف.

وهناك حالة واحدة، حالة رجل علم كلام وفيلسوف أكثر منها حالة أديب كاتب، ولكنها تجىء مثلا بين جميع الحالات، وأعنى بها حالة ابن حزم الشهير، وتردد اسمه مرات عديدة فيما سبق من صفحات، هذه الشخصية التى جاءت إلى الحياة مع أواخر القرن العاشر الميلادى تقدم لنا النموذج الكامل للعربى الأندلسى؛ أرستقراطى وعالم، ويمت لأواخر عصر الخلافة، وقد نشأ والده عصاميا، فتخلى عن أملاكه القليلة فى مقاطعة ولبة Huelva، ورحل إلى قرطبة، حيث انخرط فى سلك الإدارة الأموية، وارتقى فى مناصبها صعدا إلى أن أصبح وزيرًا للمنصور بن أبى عـامر.

نشأ ابن حزم فى هذا الوسط المتألق بذوى المناصب الرفيعة فى بلاط الخلافة، وفى هذه البيئة تعلم، ثم أكمل ثقافته الكلاسيكية وعمقها، ثم اندفع فى معترك السياسة، وسط العواصف الهوجاء التى ستطيح بالخلافة، وظل وفيًا للأمراء الأمويين الذين اختفوا واحدًا وراء آخر، ثم طواهم النسيان، وحينئذ تخلى عن لعبة السياسة، وعزف عن القيام بأى دور فعال فيما يتصل بأمور الدولة، ومنذ عام ١٠٢٤، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره، وقف نفسه نهائيًا على حياة الدرس والجدل، وكافح حتى نهاية حياته، وفى إصرار لا يعرف المهادنة، اتجاهات فقهاء المذهب المالكى الجامدة.

وفى تلك الفترة أخذ يحرر مؤلفاته الرائعة، فى الفلسفة والفقه وعلم الكلام، ويجئ فى مقدمتها تاريخه الرائع فى مقارنة الأديان ويحمل عنوان : «الفصل فى الملل والأهواء والنحل»، ويضم نقدا حادًا لبعض الفرق الإسلامية كالأشاعرة، ولم تنج من نقده العنيف أيضًا الأديان السماوية الأخرى كاليهودية والمسيحية.

كان تأليفه فى كل فروع المعرفة التى أشرنا إليها وفيرا، غير أن أروع كتبه وأنضجها، وألفه ولما يزل فى طور الشباب الغض، كتاب «طوق الحمامة فى الإلفة والألاف» وهو بحث صغير، ولكن قيمته لا تقدر بثمن، وعلى التأكيد يعتبر من نواح عديدة أكثر

الكتب أصالة، وأصدقها تمثيلا للثقافة العربية الأندلسية*.

ينثر المؤلف عبر هذا الكتاب، وهو من نتاج شبابه - كما قلنا - ذكرياته عن فترة مراهقته العابثة، ويبدو فيه كما لو كان عالما حقيقيا يحلل عاطفة الحب الولهان، من خلال أكثر مظاهره توترا، وفى نتائجه الطارئة، كالهجر والوصل والسلوان، ولقد كان **دوزى** أول من أظهر خبر وجود الكتاب، وفيما بعد درسه من المستشرقين الروسى بتروف، والإسبانى **أسين بلاثيوس**، والأمريكى ذو الأصل التشيكى **نيكل**، درسوه فى أناة واحدًا بعد آخر، وتوصلوا إلى نتائج لا يتفقون عليها فى أغلب الأحيان.

فأسين بلاثيوس[٢١] يرفض بخاصة، ونهائيا، الفكرة التى يقول بها دوزى، حين يرى أن كتاب طوق الحمامة لابن حزم وليد أصول وتربية غير عربيين قبل أى شيء، وأن الكتاب، فيما يرى هذا المؤرخ، شاهد على خصائص وراثية إسبانية، ومسيحية دون أدنى شك، تركت أثرها فى ابن حزم. ولكن عالم مدريد الأكاديمى، أى أسين بلاثيوس، لم يتردد، معتمدا على براهين حاسمة، فى أن يرفض القول بأن كتاب طوق الحمامة يعكس خصائص إسبانية

---

* نشرنا كتاب «طوق الحمامة» محققًا لأول مرة فى العربية، وصدرت الطبعة الرابعة منه عن دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥.

وانظر دراستنا له فى كتابنا: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة»، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

خالصة، ودون أدنى شك كان على حق فى دعواه*.

ومن المحتمل أن يكون الحب الأفلاطونى، كما حلله ابن حزم، وفيه من الرقة بقدر ما فيه من الكياسة، قد أسهم من موطنه فى إسبانيا العربية، من قريب أو بعيد، فى تطور الحب الرقيق Courtois الذى عرفته أوربا الغربية بعد ذلك. غير أن هذا الحب لم يكن من مبتكرات الأندلس، لأن بقية العالم الإسلامى كانت تعرفه، على الأقل منذ العصر الذى اشتهر فيه المشرق بتيارات من الأخلاق الاجتماعية، وبالميل إلى التصوف، وممارسة حياة النسك والزهد، وأوضح الحوادث دلالة مما ورد فى كتاب ابن حزم يمكن أن نجد لها نظائر، فى الزمن نفسه، وحتى قبل ذلك أيضا، بين صفحات الأدب العربى فى المشرق.

وعلى كل حال، يجب أن نضيف بأن بين تلك الحوادث ما عرف ابن حزم، وهو فنان فيما يكتب، كيف يضفى عليها جوًا حزينًا وأخاذًا حقًا، وهناك صفحة فى دراسته هذه عن الحب كثيرًا ما نردد ذكرها، لأنها تعطينا الإيقاع الدقيق لطابع الحياة فى قرطبة، خلال القرن الحادى عشر الميلادى، وبخاصة لأنها تتيح لخيالنا أن يستعيد، دون مجازفة، صورة مجتمع مصقول، كانت الرقة تتغلب فيه بالطبيعة على اللذات الحسية الجاسية. وهذه القصة الممتعة

---

* درسنا القضية تفصيلاً فى كتابنا: دراسات عن ابن حزم، الفصل: غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذرى فى الأندلس، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

تدور حول جارية شابة تسمى خلوة، دنا منها الشاعر القرطبى المعروف، يوسف بن هارون الرمادى، ذات يوم، «وكان مجتازا عند باب العطارين بقرطبة، وهذا الموضع كان مجتمع النساء. فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه، وتخلل حبها جميع أعضائه، فانصرف عن طريق الجامع، وجعل يتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة، فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض.

«فلما صارت بين رياض بنى مروان، رحمهم الله، المبنية على قبورهم فى مقبرة الربض، خلف النهر، نظرت منه منفردًا عن الناس، لا همة له غيرها، فانصرفت إليه فقالت له: دع عنك هذا، ولا تطلب فضيحتى، فلا مطمع لك فىّ ألبتة ولا إلى ما ترغبه سبيل».

«فقال: إنى أقنع بالنظر.

«فقالت: ذلك مباح لك.

«فقال لها: يا سيدتى، أحرة أم مملوكة؟

«قالت: مملوكة.

«فقال لها: ما اسمك؟

«قالت: خَلْوة.

«قال: ولمن أنت؟

«فقالت له: عِلْمُكَ والله بما فى السماء السابعة أقرب إليك

مما سألت عنه، فدع المحال.

«فقال لها: يا سيدتى، وأين أراك بعد هذا؟

«قالت: حيث رأيتنى اليوم، فى مثل تلك الساعة من كل جمعة.

«فقالت له: إما أن تنهض أنت، وإما أن أنهض أنا؟

«فقال لها: انهضى فى حفظ الله!

«فنهضت نحو القنطرة، ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه، لترى أيسايرها أم لا، فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة.

«قال أبو عمر، وهو يوسف بن هارون، فوالله لقد لازمت باب العطارين والربض، من ذلك الوقت إلى الآن، فما وقعت لها على خبر، ولا أدرى أسماء لحستها أم أرض بلعتها، وإن فى قلبى منها لأحر من الجمر»*.

لقد تخلصت الفتاة برقة ومهارة لا نظير لها من طلبه موعدًا للقاء آخر، وربما لا نجد فى الشعر الإسبانى العربى كله قصيدة بلغت من الرقة فى إنسانيتها، ما بلغته بعض جمل هذه الصفحة القصيرة[٢٢]، وأية ترجمة لها تشوهها، وتذهب بجمالها، وهى

* جاء المؤلف بالقصة مجملة، وأتينا بها كاملة: أنظر «طوق الحمامة»، ص ٤٠ ومابعدها، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكى، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٨٥.

صفحة جديرة بأن نفسح لها مكانًا فى أية منتخبات تضم روائع الأدب العربى.

* * *

لا شىء يتيح لنا الأمل فى أن نكتشف النتاج الفكرى فى العصر الوسيط، ولما يزل مجهولاً لدينا حتى الآن، ومعه يمكننا أن نتبين ملامح تأثير آداب إسبانيا المسيحية فى أكثر الأعمال الفكرية شهرة فى العصر الأندلسى الكلاسيكى، ولم تأخذ ملامح هذا التأثير فى الظهور حقًا إلا فى وقت متأخر جدًا، فى العصور الأخيرة من تاريخ الإسلام الإسبانى، حين وجدت العلاقات الثقافية طريقها سهلاً ميسرًا فى ظل حركة «الاسترداد». ومن عدم الإنصاف طبعًا ألا نشير إلى الدور الذى اضطلعت به الجماعات اليهودية التى استقرت فى الجزيرة فى تنمية هذه العلاقات، ما تعلق منها بهذا العصر أو العصر الذى سبقه على السواء، وذكر كبار ممثليهم فى هذا الدور لا يمكن فصله عن أية دراسة تستهدف حضارة إسبانيا الإسلامية، مهما كانت موجزة، وقد أسهم فيها أهل الذمة، وأحيانًا كانوا أبطالها.

كانت توجد إبان العصر الوسيط، على الدوام، جالية من اليهود تقطن مدن إسبانيا الإسلامية، ومدنها المسيحية على السواء، كثيرة العدد، مزدهرة الحال، وبخاصة فى الجانب

الإسلامى، جيدة التنظيم، تتوارث حب الدرس[٢٣]. وكان العلماء الذين أكسبوها هذه الشهرة يشكلون جمهرة غفيرة، وهم بعامة من التلموديين، ويسلكون طرقاً مشابهة لتلك التى يسير فيها فقهاء البلد المسلمين، ومنهم الأطباء، والمترجمين بخاصة، وأهلهم لهذا الدور ما عرفوا به من إتقانهم اللغات العربية والقشتالية والعبرية فى الوقت نفسه، وأحيانًا كانوا يعرفون إلى جانبها اللغتين اللاتينية واليونانية.

كان بين هؤلاء العلماء اليهود من نال شهرة واسعة، مثل حسداى بن شبروط، وأصبح سفيرًا ووزيرًا للخليفة عبد الرحمن الناصر، وسلمون بن جبيرول، وعرفته أوربا فى العصور الوسطى تحت اسم Avicebron، وهو الذى جدد الشعر العبرى، وألف فى العربية بحثاً فلسفيًا مشبعًا بالأفلاطونية الجديدة، وحمل عنوان «ينبوع الحياة»، وما من أحد يجهل اسم موسى بن ميمون Maimonide، وألف كتابه «دليل الحائرين» باللغة العربية، وحاول فيه، بعد ابن حزم وابن رشد، وقبل توماس الإكوينى، أن يوفق بين الدين والعقل.

أما المترجمون، وبريق شهرتهم أقل، فكان إسهامهم أكثر فعالية فى الجهد الثقافى الكبير الذى اضطلعت به إسبانيا المسيحية، فى آخر فترة من فترات العصور الوسطى، وقبل أن ينتقل مركز الثقافة العبرية من جنوب ووسط شبه الجزيرة إلى قطلونية وبروفانس

شغل اليهود الجانب الأكبر فى فريق الترجمة الذى شكله ألفونسو العالم ملك قشتالة، وكانت كل مظاهر التأمل الفكرى تثير اهتمام هذا الأمير الإسبانى المستنير.

لقد أشرفت حركة «الاسترداد» على نهايتها فى العصر الذى كان يحكم فيه هذا الملك، ولكن إسبانيا التى استردها مسيحيو الشمال لما تزل متعرِّبة إلى حد بعيد، وشك ألفونسو فى الفائدة التى يمكن أن يجنيها من مثل هذه الحالة، والتى يجب أن تتغير بالضرورة مع مر السنين، ومن ثم أمر بقيام هيئة كبيرة للترجمة تحت رعايته، تنقل إلى اللغة القشتالية، ترجمة أو اقتباسًا، كل التركة الثقافية التى خلفها العرب فى البلاد، وعمل فى هذا المشروع تراجمة من المسلمين والمسيحيين، ومن اليهود بخاصة، فريقًا متكاملا، ويعملون متعاونين.

وفى هذه الفترة ذاتها أنشأ الأمير نفسه معهدًا للدراسات اللاتينية والعربية فى مدينة إشبيلية عام ١٢٥٤م، ونال حماية البابا إسكندر الرابع ببراءة موقعة منه عام ١٢٦٠م، واتخذ فريق التراجمة من مدينة طليطلة بخاصة مقرًا لهم، وكان المسيحيون قد استولوا عليها من المسلمين قبل ذلك بقرنين من الزمان تقريبًا. وعمل هذا الفريق بإشراف ألفونسو المباشر وقام فى الجانب التاريخى بتدوين الكتاب الضخم «المدونة العامة Cronica general»، مستخدمين فى ذلك المصادر العربية القديمة، وترجم

فى المجال الأدبى كتبًا ذات شهرة شعبية واسعة، مثل «كليلة ودمنة»، ومع ذلك فإن دورها الأكثر أهمية كان فى نطاق العلوم الرياضية، والطب، وعلم الفلك بخاصة، وأسهمت المادة المترجمة فى العلم الأخير، أكثر من غيرها، فى شيوع شهرة هذا الفريق، وحملت اسم مدرسة طليطلة للترجمة تجوزًا، وكان يشار إليها أحيانًا باسم راعيها، فيقال المدرسة الألفونسية.

أدت مبادرة ألفونسو العالم إلى بعث الحمية والنشاط فى جهد سبق أن وجد طريقه إلى الحياة قبل ذلك بزمن طويل، ويدرك مداه من يدرس تأثير الثقافة العربية الأندلسية على مؤلفات أوربا الغربية التى تلت تلك الفترة، وبخاصة ما اتصل منها بالكتب الفلسفية، وسوف يكون إسهابًا مطنبًا أن نتتبع مظاهر هذا التأثير الخاص؛ والذى اشتهر بما سمى «الصوفية المسيحية»، وأبرز أعلامها رايموند لل، وتتلمذ مباشرة، فيما يبدو، على الطريقة الصوفية للإسبانى محيى الدين بن عربى*.

ومن جانب آخر، لم يعد أحد يجهل أن هذا التأثير أثار فى الأعوام الأخيرة مشكلة كانت موضع مناقشات حامية، بعد أن قدم المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس إلى عالم المثقفين

* راجع المقارنة الرائعة بين رايموند لل وابن عربى، والتى قام بها المستشرق الكبير خوليان ريبيرا، فى كتابنا : دراسات أندلسية، فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

نتائج ملاحظاته الفطنة، المتصلة بتأثير أدب الآخرة الإسلامى فى الكوميديا الإلهية لدانتى الإيطالى[٢٤].

إن مدرسة كاملة من علماء الدراسات الرومانية، على رأسها رامون مينينديث بيدال[٢٥] تعارض اليوم النظرية البروفنسالية عن مصادر شعر التروبادور، وتربط منابعه بالشعر العامى فى إسبانيا، والزجل منه بخاصة، والمسألة معقدة، وصعبة الحل، وحتى لو درسنا فى موازنة هذين اللونين من الشعر، الزجل وشعر التروبادور*، وهما متشابهان ظاهرًا، لأن كلًا منهما يستخدم الدور*، وفسرنا سقوط المركز فى شعر تروبادور أقيطانية بعدم فائدته فى شعر البلاط، ولا جدوى من ترديد الجوقة له، فإن هذه المشكلة، فى كل الأحوال، سوف يراق فى سبيلها مستقبلاً حبر كثير. أما فى هذه اللحظة فكل ما يتاح لنا أن نتقدم به القول بأن علاقات ما قامت بين الطرفين فى إسبانيا الإسلامية ومقاطعة بروفانس، على امتداد الزمن دون أدنى شك فى هذا.

كيف كان يتم التبادل بين الجانبين؟ محاولة تحديد هذا ضرب

---

* لمعرفة تاريخ التربادور، يمكن الرجوع إلى فصل « الشاعر الجوال » فى كتابنا : ملحمة السيد، دراسة مقارنة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

* الدور فى الزجل، أو الموشحة، يتكون من المركز، والأغصان والقفل، انظر كتابنا : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة الفصل الخامس بالشعر الأندلسى والشعر الأوربى، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.

من المغامرة، وفيما يتصل بالأشعار الموريسكية* الشهيرة، وكانت مملكة غرناطة فى القرن الخامس عشر الميلادى، والحمراء منها بخاصة مسرحًا لها، ولا شيء يبرهن على أنها كانت مجرد نقل إلى أن نجد ما يقابلها فى اللغة العربية، ومع ذلك، كانت هذه الأشعار أو بعضها، آخر إطلالة للثقافة الأندلسية امتد بها الزمن، بينما الإسلام يرحل من شبه الجزيرة، وهى لا تختلف فى مصادر إلهامها عن كثير من الأزجال الشائعة اليوم فى فاس أو الرباط، حيث احتفظ المغنون المحترفون بجوهر الحكايات العربية الغرناطية سالمًا، منذ أواخر العصور الوسطى، دون أن يدركوا حتى معانى كلماتها فى بعض الأحيان.

* * *

وعدنا بأن نضع حدا لجميع هذه الاعتبارات ، وربما وجدها البعض صورية إلى حد بعيد، لكن ما من أحد يستطيع أن يعيب عليها أنها لم تكن موضوعية على نحو دقيق. وهو دون ريب أهم ما يطلب فى نظرة مجملة، حاولنا خلالها أن نضع الحضارة العربية الإسبانية فى مكانها الحقيقى، من نطاق الحضارة المشتركة على امتداد الأرض الإسلامية كلها، بقدر ما حاولنا أن نبين موضعها

* تطلق كلمة موريسكوس Moriscos على المسلمين الذين ظلوا فى إسبانيا بعد سقوطها فى يد المسيحيين، ثم أكرهوا على اعتناق الكاثوليكية، وعلى التحدث بالإسبانية ثم تقرر طردهم، بعد أن شك رجال الدين فى مسيحيتهم، عام ١٦١٣.

فى إطار حضارة أوربا الغربية فى العصر الوسيط.

ونعتقد أننا برهنا فى دقة كافية على أن الثقافة الأندلسية، ولو أنها ظلت وفية تماما لأصولها المشرقية، أخذت من جانب آخر تعى شخصيتها وقوتها شيئًا فشيئا، وعرفت من جانب آخر، فى زمن أقرب إلينا، كيف تفرض نفسها بقدر كاف خارج حدودها الإسلامية، فأقيمت فى هذه الأمكنة مؤسسات وأشكال اجتماعية شبيهة بما كان عليه الحال عندها، وأثّرت على نحو خاص فى تطور الفكر والمعرفة الأوربية فى عصور ما قبل النهضة، وفى ظروف ليس من السهل، دائما تحديدها الآن بدقة.

غير أن هناك سؤالا يطرح نفسه الآن، ولا مفر من الإجابة عليه : ما نصيب الحضارة العربية فى إسبانيا، لافى العصور الوسطى فحسب وإنما فى أيامنا هذه، من التراث الذى تلقاه شبه الجزيرة من ماضيه البعيد؟. أما أن الأندلس خلّف وراءه تراثا فشىء مؤكد، وليس فى ذلك أدنى شك. ولكن، هل كان فى مجمله نافعا أم ضارا؟ هذه قضية تهيمن منذ سنوات على نقاش واسع، يجرى فى انفعال حاد دائما، وفى عنف بالغ أحيانا، وليس على جانب واحد من جبال البرانس فحسب.

وأنا أعرض لهذا الموضوع حذرا، ودون تعصب لأى جانب ، وبخاصة أننا فى فترة تجتاز فيها إسبانيا أشد اللحظات فجاعة فى تاريخها القومى كله، ذلك أن بربر شمال إفريقيا عبروا مضيق جبل

طارق مرة أخرى، مع فريق إسبانى وضد فريق آخر، للدفاع عن حركة صوفية اجتماعية، وليس ثمة ما يحول دون الظن بأنها من المحتمل ألا تكترث بهم*.

ويجب أن نبادر فى الحال إلى استبعاد بعض التأكيدات لأنها نفسها تحتاج إلى تأكيد، فهى تعتمد فيما تزعم على وثائق ليست بريئة من الغرض والهوى دائما، ولا سيما أن لهجتها الجافة والحاقدة معا تجعلها موضع الشك القوى منذ اللحظة الأولى، ومن جانب آخر لأنها تصدر عن كتاب ليسوا إسبانًا، ولا مؤرخين، ولا متخصصين فى الدراسات الإسبانية. وأكثر من هذا كله، وعلى غير معرفة بالإسلام!. ولهذا يلقون على المسلمين عقم إسبانيا وتفريغها من السكان، وأنهم جعلوا منها «صحراء مثل شمال إفريقيا» ويستطيع المرء أن يقسم وهو يقرأ لهم هذا الكلام أنهم لم يسمعوا أبدا وشوشة مياه النوافير فى جنة العريف، ولم يستنشقوا أبدا أريج النسيم العطر فى إبهاء قصر إشبيلية، وهم يرون وأنا أنقل رأيهم حرفيا: «إن أقل ما يمكن أن يقال أن الحكم الإسلامى كان كارثة كبرى حلت بإسبانيا»[٢٦].

لا يوجد الآن أى مثقف فى إسبانيا يجرؤ على أن يرسل مثل هذه

---

* يشير إلى مشاركة سكان شمال المغرب، وكانوا تحت الحكم الإسبانى إذ ذاك، فى حملة الجنرال فرانكو خلال الحرب الأهلية الإسبانية، ١٩٣٦-١٩٣٩، حين أخذ جانب الفاشية، واستطاع أن يأتى على الجمهورية، وبقى حاكما إلى أن توفى عام ١٩٧٦. (المترجم)

القولة، أو يقول بمثل هذا الرأى المفرط فى الشطط والمبالغة ، فقد جاء كرد فعل ضد اتجاه ساذج، ساد فى شبه الجزيرة نفسها، يوازن بين إسبانيا الإسلامية وإسبانيا المسيحية فى العصور الوسطى، فيرى الأولى مثقفة مستنيرة، على حين تقبع الثانية فى الهمجية والظلام.ولكن إسبانيا، على الأقل قبل عام ١٩٣٦، عرفت كيف ترد إلى إسلام الأندلس مكانته فى مراتب الشرف، وادعت علنًا، مرفوعة الرأس، أن تراث الأندلس زهرة يانعة الجمال فى تراثها التاريخى والفكرى، ولم تجد حرجا فى الاحتفال مزهوة بمرور ألف عام على تأسيس الخلافة الاسلامية فى قرطبة، وبعد ذلك بسنوات احتفلت بذكرى الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون، وحرصت، دون تصنع، على ألا تبالغ فى التمجيد، وعلى ألا تهمل لحساب أمجادها الإسلامية جميع مفاخرها القومية الأخرى، وليدة أرضها القاسية وما ضيها المسيحى، وأحيانا أيضًا، دون أن تقرر فى حسم، عادت تتأمل ماحولها من مظاهر وربما جاءتها إرثا من الإسلام، وما من أحد يستطيع الامتناع عن السير وراءها فى هذا المجال.

لقد طبعت حركة «الاسترداد» بطابعها، وتحركت باسم مثالية سياسية ودينية، كل تاريخ شبه الجزيرة فى العصر الوسيط على نحو قوى. وكانت عملا اتسم بالأناة الصابرة، والإرادة القوية الحاسمة، وهو فى مثابرته، والجهود المضنية التى بذلت فى سبيله،

على امتداد ثمانية قرون، يثير الإعجاب، ويستدعى الاحترام، وإذا لم يبعد هذا العمل الجوهرى إسبانيا عن كل واجباتها وكل الأعمال الأخرى، فقد أدى على الأقل، منطقيا، إلى تأخر إنجازها. لقد جعلت حركة «الاسترداد» من الممالك المسيحية المختلفة فى شبه جزيرة إيبريا الطليعة الحارسة واليقظة دومًا، وعلمها أخيرا أن مهمتها لن تكلل بالنجاح إلا إذا دفعت الثمن كاملا، وحدة سياسية تجمع بين قشتالة وأرجون فى ظل تاج واحد.

لقد حافظت إسبانيا فى نفوس أبطالها، خلال كل العصور، على روح محارب، وعنيف أحيانًا، وشعور دينى متوحش، ووجدت الكتلة الإيبرية نفسها، عبر كل حروب الاسترداد، منقسمة إلى حزبين، وتوقفت نهضتها الاقتصادية المتنافسة دفعة واحدة، فى مجملها، وأطلقت العنان لقيام دولتين إسبانيتين، تمور كل واحدة منهما باضطرابات داخلية، ولكن ذلك لم يدفع أيًا منهما إلى أن تتعمد تجاهل الدولة الأخرى.

ولعل إسبانيا المسيحية لم تقدر، عندما تمت حركة «الاسترداد» على نحو كاف من الوضوح، ما أصابها من تأخر واختلاف عن بقية دول أوربا، بسبب كفاحها طيلة أجيال عديدة فى سبيل وحدتها القومية، ثم أخذتها النشوة قليلا لأنها وقعت على سلسلة من الفرص المفيدة، مثل اكتشاف أمريكا واستغلالها، والتفوق

العسكرى بسبب تدربها الطويل على فن الحرب، واتحادها مع إلمانيا عند ماورث أحد آل هبسبورج ملكى إسبانيا فرناندو وإيزابيل، وبدافع من كل هذا انزلقت نحو سياسة خارجية متهورة ومغامرة، لم تخرج منها إلا وهى منهوكة القوى.

ولكن، هل يمكن حقا أن نرد هذا الاستنزاف لقواها قبل الأوان إلى الإسلام الإسبانى؟ نعم، دون أدنى شك، فى نطاق أن الاسلام فرض على إسبانيا المسيحية لو نا من السلوك لا تستطيع أن تحيد عنه، ولا أن تخرج عليه، حتى القرن الخامس عشر الميلادى، فأنضب هذا كل فاعليتها، واستنفد جميع طاقاتها، ومع ذلك، يمكن بالتأكيد أن يكون الجواب: لا، فى المجالات التى ساعد فيها الإسلام إسبانيا، حين نفخ فى روحها ثقافة تتلاءم مع عبقريتها الخاصة، لكى تستطيع أن تواصل السير فى الطريق الذى سلكته بقية دول أوربا الغربية قبلها، فانتهى بها إلى عصر النهضة.

كان السياسى العالم كلاوديو سانتشيث البرنس* رئيسا لجامعة مدريد، وسفيرًا لبلاده ثم وزيرا لشئونها الخارجية، ولكنه يبقى، قبل كل شئ، مؤرخا على مستوى رفيع، وأخذ يتأمل طويلا المأساة

* حين قامت الجمهورية اختار كلاوديو جانب الجمهوريين، وحين هزمت خرج إلى المنفى، واستقر أخيرا فى الأرجنتين، يدير قسم التاريخ فى كلية الآداب بجامعة بونس أيرس، واختاره الجمهوريون رئيسا للجمهورية فى المنفى طوال حكم فرانكو، وتميز بأبحاثه التاريخية العميقة، عن إسبانيا فى العصور الوسطى، ولو أنها تنضح بلون من القومية الغالية، ثم عاد أخيرا إلى إسبانيا وتوفى عام ١٩٨٥. (المترجم)

الفكرية لإسبانيا الحزينة، وقد استطال بها الزمن، ولما تتوقف. وراح يسأل نفسه عما إذا كان وطنه، وجعلته مهمته فى مواجهة الإسلام يقظا، واضطرب مصيره اضطرابا عنيفا، لا يزال إلى اليوم أيضا «منكوبا بعيب جوهرى». إنه يصرخ بكل جوارحه، والحق كله معه، لأن كل ما يوده أن يرى إسبانيا «تنفض عن نفسها غبار ماض ثقيل لما يزل يضغط على روحها». غير أنه أيضًا يعرف أكثر من أى شخص آخر، كيف أشرق الإسلام على هذه البلاد، وما ترك تراثه الحقيقى فيها من أثر عميق على الفكر الإسبانى لا يمكن إنكاره. ولنفسح له مجال القول فى الختام، لكى نردد معه كلمة كلمة هذا الاعتراف العفوى المؤثر[٢٧] : «لا يمكن لأحد اليوم أن يتحدث عن ظلمات العصور الوسطى، كما كان عليه الحال من قبل ، ولكن علينا أن نذكر أنه فى مواجهة أوربا التى ترقد فى التعاسة والانحطاط، والبؤس الفكرى والمادى، كان الإسبان المسلمون يبنون حضارة رائعة، واقتصادا مزدهرا. وكل يوم يدهشنا الأساتذة من المستشرقين الأسبان، ممن وقفوا أنفسهم على الدراسات العربية[٢٨]، بما يقعون عليه من شواهد جديدة، عن مدى تألق الثقافة الإسبانية الإسلامية وعمقها، وهم يدعون أنها لعبت دورا حاسما فى تطور الفن والفلسفة والعلم والشعر، وجميع ثقافة أوربا المسيحية، وبرهنوا على أن الحضارة الإسلامية الإسبانية تركت طابعها فى أعلى قمم الفكر المسيحى فى القرن الثالث عشر، مثل القديس توماس الإكوينى، وشاعر إيطاليا الأكبر

دانتى، ولكن مازال هنا وهناك على جانبى جبال البرانس وعلى ضفتى البحر الأبيض المتوسط، من ينفر من هذه الأستاذية العربية الإسبانية، لا يقبلونها فى سهولة، ويرفضون أن يعترفوا لها بهذا التفوق، رغم الشواهد العديدة والثابتة التى تدعمها الآن. والتى نكتشف كل يوم مزيدا منها، وكلها تؤكد ما كانت عليه الحياة المادية والفكرية من ازدهار فى إسبانيا الإسلامية، ولقد مرت قرون عديدة قبل أن يعمل «عصر النهضة» على تفجير ينابيع جديدة من الحضارة الكلاسيكية أوشكت أن تنضب، وكان نهر الحضارة الأندلسية الزاهية خلالها يتدفق فى قرطبة قويا وعاليا، فيبلغ مده بقية أنحاء أوربا، على امتداد العصر الوسيط، حضارة عرف الإسلام كيف يحتفظ فيها بجوهر الفكر القديم، وينقله إلى العالم الجديد».

● الهوامش والتعليقات :

(١) انظر : هـ. بيرين، محمد وشارلمان، ص ١٤٣ و٢٦٠.

(٢) كلاوديو سانتشيث البرنس : إسبانيا والإسلام ص ٥.

(٣) فيما يتصل بهذه المسألة انظر كتابي : إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ٣٣ ومابعدها.

(٤) انظر دوزى : تاريخ المسلمين فى إسبانيا، الطبعة الجديدة الجزء الأول، ص ٣١٧ و٣١٨ : وذكرها أيضًا : سيمونيت، وجو نثالث، وف. لوت فرديناند.

(٥) انظر كتابي : إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادى : ص ٣٥ ويجب أن نذكر أيضا زواج ألفونسو السادس ملك قشتالة بأميرة مسلمة. انظر : ليفى بروفنسال، سيدة المسلمة زوجة ألفونسو السادس القشتالى وولدهما، فى مجلة هيسبيريس المجلد ١٨ ، ١٩٣٤ ، ص ١-٨.

[والمقال مترجم إلى اللغة الغربية فى كتاب الإسلام فى المغرب والأندلس، بعنوان : زايدة المسلمة زوجة ألفونسو السادس وولدهما الأمير شانجة Sancho ص ١٥١-١٦٤ ، وقد نشر الكتاب فى سلسلة الألف كتاب فى القاهرة، عام ١٩٥٦ ، ويلاحظ أن المترجمين كغيرهم قبلهم ترجموا لفظ Zaida باسم زايدة، والحق أنه سيدة].

(٦) أتيت على هذه الحوادث تفصيلا فى كتابي : تبادل السفارات، فى مجلة بيزنطة، ١٩٣٧.

(٧) انظر كتابي : إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ١١٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٥٢ وما يليها.

(٩) المصدر نفسه، ص ٤٩ ، هامش رقم ١.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٨-٣١.

(١١) المصدر نفسه، ص ٥١ ، هامش رقم ٢ ، وهى مأثرة أوضحها ف لوت، فى كتابه : الغزوات البربرية، ص ٦٧.

(١٢) نجد أمثلة مماثلة فى :

● جونثالث بالنثيا : الإسلام والغرب، ص ٢٧-٢٩.

● ج. ب. ترند: إسبانيا والبرتغال، فى كتاب «تراث الإسلام». ص ١٩-٢٧.
● ف. لوت: الغزوات البربرية، ص ٧٠-٧١.
ولدراسة أكثر تفصيلا يمكن الرجوع إلى:
● ر. دوزى وآخرون: معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية، الطبعة الثانية ليدن، ١٨٦٩.
● د. ل. إيجالث: معجم الكلمات الإسبانية ذات الأصول المشرقية، غرناطة، ١٨٨٦.

أما تأثير اللغة الرومانية على اللهجات العربية الإسبانية فقد درسها من قبل:
● ف. خ. سيمونيت: معجم الألفاظ الإيبرية واللاتينية المستخدمة بين، المستعربين، مدريد، ١٨٨٩.

وتبدو بخاصة، وعلى نحو شامل، فى الدراسات التى قام بها مؤلف هذا الكتاب وحده أو بالتعاون مع ج. س. كولين، عن الشرطة المدنية الإسبانية.

(١٣) القوائم التى نشرها جونثالث بالنثيامهمة جدا، إلا أنها نشرت فى الأغلب على نحو خاطئ، وذلك فى المجلد الذى جاء مقدمة للدراسة الهامة التى نشر ها بعنوان: مستعربو طليطلة فى القرنين الثانى والثالث عشر الميلاديين، مدريد ١٩٣٠.

وانظر كذلك الملاحق المفيدة التى وضعها سانتشيث البرنس لكتابه: صور من الحياة فى ليون خلال القرن العاشر الميلادى ١٨٦-٢١١.

(١٤) انظر استردادها خيالا، كما عرض له سانتشيث البرنس، فى مؤلفه السابق، ص ١٤٣-١٤٤.

(١٥) انظر: سانتشيث البرنس فى كتابه «إسبانيا والإسلام»، ص ١٠، حيث يقول:

«لم تستعمل الممالك المسيحية أبدا، خلال مدة تقرب من ٤٠٠ عام سوى العملات العربية والفرنجية، وبقى ملوك قشتالة بعد ذلك ما يقرب من قرن كامل قبل أن يضربوا لهم عملة ذهبية، وكان تقليد العملات الفرنجية والعربية يتم فى امانة، سواء ما اتصل منها بضرب القطع الفضية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، أم من أجل صك العملات الذهبية فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر».

(١٦) انظر: ليفى بروفنسال، السيد فى التاريخ، ص ٧٢.

(١٧) ر. دوزى: أبحاث عن تاريخ وأدب إسبانيا فى العصر الوسيط، الطبعة الثالثة، الجزء الأول ص ٢٠٤.

(١٨) فى كتابه : كنائس المستعربين، وقد ألحق به مجموعة من الصور.

(١٩) فى مقال له بعنوان : الفن الإسبانى - المغربى والفن الرومانى، مجلة هيسبيريس، المجلد ١٧، ١٩٣٣، ص ٤٢-٤٣.

(٢٠) هنرى بيريس : الشعر الأندلسى، ص ٤٧٥.

(٢١) انظر كتابه : ابن حزم القرطبى، المجلد الأول، ص ٤٨ ومايليها.

(٢٢) يمكن أن تقرأ هذا النص فى مقدمة بتروف باللغة الفرنسية، لطبعته من كتاب طوق الحمامة، ليدن ١٩١٤، ص ١٦-١٧.

(٢٣) انظر كتابى : إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ٣٧-٣٩.

(٢٤) لخص أسين بلاثيوس هذه المناقشات، فى فصلة من مجلة المجمع الملكى الإسبانى، ونشرها عام ١٩٢٤، وفيما بعد ألحقها بنهاية كتابه : « الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية »، وصدرت طبعته الأولى عام ١٩١٩.

(٢٥) الشعر العربى والشعر الأوربى، فى المجلة الكويتية، عدد يناير - مارس ١٩٣٧، ولست أعرف هذا البحث حتى الآن إلا من خلال العرض الذى قدمه له ج. جيرو فى المجلة الإسبانية، عام ١٩٣٧، ص ٤٣٠-٤٣٢.

[وفيما بعد أضاف إلى البحث قضايا كثيرة، ونشره مستقلا بنفس العنوان، فى سلسلة أوسترال، التى تصدرها دار إسباسا - كالبى فى مدريد، وصدرت منه طبعات عديدة].

(٢٦) لويس برتراند : تاريخ إسبانيا، فى المجموعة التى تصدرها دار فيارد، بعنوان : الدراسات التاريخية الكبرى، باريس ، ١٩٣٢، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٢٧) إسبانيا والإسلام، ترجمة ب. جينار، ص ٥.

(٢٨) سانتشيث البرنس يحدد هؤلاء الأساتذة بأنهم : ريبيرا، أسين بلاثيوس، غومث مورينو، ومن العدل أن نضيف إلى هذا التكريم إسبانا آخرين متضلعين فى اللغة العربية، أقل سنا، وكذلك أعضاء مدرسة الاستشراق الفرنسى، التى جددت البحث العلمى فيما يتصل بالأندلس، منذ حوالى عشر سنين، وبخاصة فى الرباط والجزائر.

● ملحق :

المذهب المالكى فى الأندلس وإسهامات المذاهب الأخرى

○ المذهب المالكى فى إسبانيا الأموية[1]:

إذا كانت إسبانيا الأموية قد عُرفت دائما بأنها قلعة حصينة من قلاع أهل السنة المحافظين، فقد اشتهرت فى الوقت نفسه بأنها من أقوى حصون المذهب المالكى، ولكنها مالكية جامدة، ومن ثم يصح لنا أن نطلق عليها اسم «مالكية الأندلس».

---

(١) أفضل لمحة عن المذاهب الفقهية فى الأندلس، خلال العصر الأموى، توجد فى كتاب أسين بلاثيوس : ابن حزم القرطبى، جـ١ ص ٣ وما بعدها. وأتى عليها موجزة أنخل جو نثالث بالنثيا فى كتابه : «الأدب الأندلسى» الطبعة الثانية، ص ٢١٠-٢٢٩(وقد ترجم فى القاهرة إلى اللغة العربية بعنوان : تاريخ الفكر الأندلسى. والصفحات المشار إليها تقابلها فى الطبعة العربية الصفحات ٤١٣-٤١٨). وخارج المؤلفات الكلاسيكية لجولد تسيهر، وسنتيانا، يمكن الرجوع إلى المقال الذى كتبه فيتان : «طبقات المالكية»، فى الكتاب الذى صدر تكريماً لفرانسيسكو قديرة، سرقسطة ١٩٠٤، ص ١٠٨، ولويث أورتيث فى دراسته : «انتشار المذهب المالكي فى الأندلس»، فصلة من مجلة تاريخ القانون الإسبانى، المجلد ٢٨، مدريد ١٩٣١، ص ١-١٦٩، وكتابه : «القانون الإسلامى»، برشلونة؛ ١٩٣٢، ص ٣٦ — ٤١.

لقد أصبح المذهب المالكى فى الواقع، منذ القرن التاسع الميلادى المذهب الوحيد المعترف به رسميا فى قرطبة، وأقامت الغالبية العظمى من فقهائه نفسها حارسة يقظة عليه، حتى انتهوا به إلى الجمود النظرى، وكان ذلك فى مواجهة النشاط الجم الذى اتصفت به المذاهب الفقهية فى المشرق، فى الشريعة وعلم الكلام. وكانت الأفكار المناسبة تجئ دائما مصبوغة بلون مالكى، وتأخذ شكلا واحدا يوحى بالحذر، لقد كان على إسبانيا الإسلامية، خلال الحكم الأموى، ولم تعد تسمع غير صوت هذا الجرس الوحيد، أن تدير ظهرها بقوة للمذاهب الأخرى، رغم أنها كالمذهب المالكى سنية ومحافظة، وآثرت بدعم من السلطة الزمنية أن تحتفظ بتبعيتها كاملة لمذهب عالم المدينة، ودون ما شك كان هذا يعود أحيانا إلى التأثير الذى مارسه فقهاء المالكية على عاهل قرطبة، فى عهدى الإمارة والخلافة على السواء، أو لأن الحاكم الفعلى، وبخاصة أيام الحجابة العامرية، كان يجد فى مثل هذا الموقف مكسباً شخصيًّا وسياسيًّا.

ولكن الأندلس شهد أيضا أمراء عرفوا كيف يتحررون من نفوذ الفقهاء، ويسمحون، بل ويشجعون، بدخول تيارات فكرية جديدة، ما دامت لا تمس سلامة العقيدة، ولا تهدد نظام الحكم. وثمة شواهد عديدة على هذا التسلل، وبخاصة فى عهد الأمير محمد الأول (٨٥٢-٨٨٦م)، والحكم الثانى (٩٦١-٩٧٦م) وكان

الفكر المناصر للمذهب المالكى يقلل من قيمة هذه التيارات المتسللة، أو يهمل شأنها، ويطالب صراحة بقصر النشاط المشروع فى الأندلس، فى مجالات الفقه والتشريع، على المذهب المالكى وحده.

ولتقويم هذا النشاط، من جانب آخر، سوف نعتمد على معلومات محدودة الموضوعية، ونلتقى بها لحسن الحظ فى مصدرين أهميتها غير متساوية إلى حد بعيد، ولكنهما متعاصران تماما، وقيمتهما التوثيقية، وبخاصة الأول منهما، من الدرجة الأولى، وأعنى به كتاب «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضى[1]، ورسالة ابن حزم الصغيرة فى «فضائل الأندلس»، وما أكثر ما يتردد اسم هذا المجادل الإسبانى الكبير، وعاش فى القرن الحادى عشر الميلادى، تقديراً لفضله فيما أورد من معلومات أصيلة ودقيقة عن الحياة السياسية والاجتماعية فى البيئة الإسبانية، وفى بحثه الممتع عن الأسر والقبائل فى كتابه، «جمهرة أنساب العرب»، أو فى كتابه الأشهر «طوق الحمامة»، أو فى كتاب «نقط العروس»[2]،

---

(١) طبعه فرانسيكو قديرة، لأول مرة فى المكتبة الأندلسية، المجلد الثامن مدريد ١٨٩٢م. وطبع مرة ثانية فى القاهرة عام١٩٥٤. ثم طبعته للمرة الثالثة الدار المصرية للتأليف والترجمة فى سلسلة تراثنا، القاهرة ١٩٦٦. (المترجم)

(٢) نشر ليفى برفنسال جمهرة أنساب العرب للمرة الأولى فى القاهرة، فى سلسلة ذخائر العرب التى تصدرها دار المعارف عام ١٩٤٨، وكانت الطبعة الثانية منه فى نفس السلسلة، من تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون، وصدرت عام ١٩٥٤. =

ومفهومه وخطته فى هذا الكتاب موجزة للغاية، ولكنه زاخر بالإشارات القيمة عن عالَم الأندلس. أما رسالة ابن حزم عن «فضائل الأندلس»[1]، فعرض مركز لمزايا وطنه. وعلى الرغم من إيجازها تلقى نظرة إجمالية ملهمة عن النشاط المذهبى فى بلده، وهو فى هذا لا يقتصر على علماء المذهب المالكى، وإنما يتجاوزه إلى غيرهم من علماء الشافعية والظاهرية، وكان المؤلف نفسه ظاهريًّا، ويمكن أن تعتبر رسالته هذه وصفا مجملا للحياة الفكرية فى الأندلس حتى عصر الطوائف، فى مجالات الفقه والحديث وأصول الفقه.

أما ابن الفرضى فهو كتلميذه ابن حزم، إليه يعود الفضل فى أنه لم يوقف كتابه «تاريخ علماء الأندلس»، وهو مجموعة من التراجم، على فقهاء المذهب المالكى وحدهم؛ ولم يسجن نفسه فى إطار كتب

=أما كتاب طوق الحمامة فنشره للمرة الأولى المستشرق الروسى بتروف فى ليدن١٩١٤، وتوالت طبعاته بعد ذلك فى مصر، وأفضل هذه الطبعات ماصدر محققا عن دار المعارف، وصدرت الطبعة الرابعة منه عام ١٩٨٥، وهو مترجم إلى اللغات الروسية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والإسبانية وغيرها.

ونشر سيكو دى لوثينا نقط العروس، فى مجلة جامعة غرناطة، ١٩٤١، ثم أعاد نشره الدكتور شوقى ضيف فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، المجلد ١٣، ج ٢، ديسمبر ١٩٥١.

(المترجم)

(١) احتفظ لنا المقرى فى كتابه نفح الطيب بنص الرسالة كاملا أنظر: النفح، الطبعة الأوروبية، الجزء الثانى، ص ١٠٩-١٢١. [وتجىء فى طبعة محيى الدين، القاهرة ١٩٤٩، فى الجزء الرابع، وفى طبعة إحسان عباس ١٩٦٨، الجزء الثالث، ص١٥٦-١٧٩].

« الطبقات » الضيق، ولكنه فتح الطريق أمام نفسه واسعا، وسار خلفه كثيرون منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى مثل : ابن بشكوال فى كتابه « الصلة »، وابن الزبير فى كتابه « صلة الصلة »، وابن الأبار فى كتابه « تكملة الصلة »؛ وقد استخدم ابن حيان، المؤرخ الأندلسى الكبير، فى كتابه « المقتبس »، المعلومات الوفيرة التى جمعها ابن الفرضى، فى المقام الأول ليرسم بها صورة للنشاط الثقافى فى شبه الجزيرة الإيبيرية حتى حكم أمراء الأسرة المرواتية.

لن نعود إلى تفصيل الظروف التى سبق سردها فى بداية هذا العمل، ومنها أن مذهب الإمام مالك، أو مذهب أهل المدينة فيما يسمى أحيانا، دخل الأندلس قرب نهاية حكم الأمير هشام الأول (٧٨٨-٧٩٦)، أو فى السنوات الأولى من حكم ابنه الحكم (٧٩٦-٨٢٢م)، وتم ذلك على أى حال فى مطلع القرن التاسع الميلادى، ولقد أوضحنا كيف أن هذا المذهب حل سريعا مكان مذهب الأوزاعى إمام أهل الشام، وكان قد انتشر فى قرطبة، وكانت هذه على اتصال وثيق بالتقاليد السورية، وكان صعصعة بن سلام الشامى من أظهر تلاميذه فى عاصمة بنى أمية فى الأندلس، وكان دعاة هذا التغيير من علماء الأندلس، عربا أو بربرا، يجدون تشجيعاً كبيراً من خلفاء عبد الرحمن الداخل، ومعظمهم تلقى تعليمه فى مدينة الرسول على الإمام مالك نفسه، أو على أصحابه، ودرسوا معهم مذهب عالم أهل المدينة،

وأحضروا معهم إلى قرطبة نسخاً من كتاب «الموطأ» الشهير، وهو من تأليف مؤسس المذهب، والمرجع الأول فيه، ويعد أقدم دراسة فقهية فى الإسلام وصلتنا حتى يومنا هذا. وهؤلاء الفقهاء الذين اضطلعوا بمهمة إدخال المذهب ونشره هم: زياد بن عبد الرحمن ويعرف بشبطون، ويحيى بن مضر، وعيسى بن دينار، ويحيى بن يحيى الليثى، وهذا الأخير من أصل بربرى، ولم يكن هؤلاء دعاة المذهب المالكى فى إسبانيا فحسب، وإنما كانوا يمثلون أيضا الطبقة الأولى من رجال الدين الأندلسيين الذين مارسوا تأثيراً كبيراً فى الحياة، سواء فى قرطبة العاصمة، أو إلبيرة، أو إشبيلية، أو طليطلة، وطبعوا المذهب المالكى بميسم التصلب والثبات والجمود، وكانت هذه علامات مميزة لهذا المذهب خلال العصر الأموى.

إن المذهب المالكى فى الأندلس، وليس هنا مجال دراسته من وجهة نظر فقهية، مقارنا بمذاهب أهل السنة الأخرى، فى حاجة دون أدنى شك لأن يقوّم من جديد، فى ضوء النظريات الجديدة التى انتهى إليها الباحثون من قريب، عن تطور اتجاهات الفقه المختلفة خلال العصور الوسطى[1]. وفى انتظار هذا التقويم

(١) انظر: ج. شخت: أصول الفقه الإسلامى، أكسفورد ١٩٥٠. وأيضاً: د. برونشفيج: «جدل من العصر الوسيط حول مذهب الإمام مالك»، مجلة الأندلس، المجلد ١٥، ١٩٥٠، ص ٣٧٧-٤٥٣.

سوف نأخذ بالرأى الذى قال به اثنان من أساتذة الدراسات الإسلامية، وهما معاصران، ولو أنهما توفيا، وأعنى بهما جولد تسيهر[1] وميجيل أسين بلاثيوس[2].

وفيما يرى هذان العالمان فإن المدرسة الإسبانية فى الفقه تخلت سريعا عن دراسة الحديث وأعمال الصحابة، وكانتا الأساس الذى قام عليه مذهب إمام المدينة، واكتفت بدراسة كتب الفقه المبسوطة كما ألفها بعض علماء المالكية من الأجيال التى تلت الإمام مالك.

وقد شجع الوقوف عند هذه المؤلفات على إيجاد طريقة سهلة ورتيبة كانت السبب فى إخفاق أى تطور علمى، وقضت على البحث عن الحلول المناسبة فى الحالات المتنازع عليها بالعودة المباشرة إلى المصادر التى أجازتها الشريعة الإسلامية، أو بالاجتهاد الشخصى. وهذه العقلية نفسها كانت وراء رفض فقهاء المذهب المالكى فى الأندلس الاعتماد على «العرف والعادة» عند تطبيق الأحكام الشرعية، على ما تقضى به «أصول علم الفقه»، كما قننها الإمام الشافعى، فى بداية القرن التاسع الميلادى، والذى أسس مذهبا فقهيا يحمل اسمه أيضا. والنتيجة الوحيدة لاستخدام هذه

---

(1) فى مقدمته لـ«كتاب ابن تومرت»، الجزائر ١٩٠٣، ص ٢٣-٢٥.

(2) فى كتابه ابن حزم القرطبى، جـ١ ص١٢١-١٢٢.

* وقد ترجمت هذا الكتاب إلى اللغة العربية، وهو فى طريقه إلى المطبعة.

(المترجم)

الكتب أنها أدت بالمالكية فى الأندلس إلى التزام التقليد، وهو يتأثر بالكاد، وفى أحايين قليلة جدا، بما يجرى عليه العمل محليا. وسوف يبقى هذا الأمر على حاله إلى ما بعد سقوط الخلافة وتبدو بخاصة سببا جوهريا لتبلور الإسلام فى الغرب تحت حكم المرابطين.

سوف نحتاج إلى صفحات عديدة لكى نأتى على اسم هؤلاء الفقهاء الأندلسيين الذين اشتهروا بطريقتهم هذه، فى نطاق المذهب المالكى فى الأندلس، وكان متطرفا فى تحفظه، وسنكتفى من بينهم بذكر أسماء هؤلاء الذين كان لهم شرف أن يذكرهم ابن حزم فى رسالته «فضائل الأندلس»، ويأتى فى المقام الأول منهم الإمام مالك نفسه، وتلاميذه المباشرون الذين جاءوا إلى إسبانيا بمذهب عالم أهل المدينة، وهم عيسى بن دينار، وأسهم فى المؤامرة التى دبرها الفقهاء فى قرطبة مع عامة الناس ضد الحكم الأول، ثم اختفى زمنا بعد فشلها، وأخيرا عفا عنه الحكم ثم عبد الملك بن حبيب، المتوفى عام ٢٨٨ هـ = ٨٥٣م، وينسبون إليه تأليف عدة كتب، من بينها كتاب فى التاريخ يبدو أنه ليس له، وإنما نسب إليه زيفا. وأخيرا يحيى بن يحيى الليثى، وأصبح فى منتصف القرن التاسع الميلادى ألمع شخصية فقهية فى قرطبة وتولى زعامة المشاورين والمفتين والفقهاء فى العاصمة، ورفض كل المناصب الرسمية التى عرضت عليه، وكان يملى على الأمراء أسماء من يجب

اختيارهم لمناصب القضاء، ويفرض عليهم عزلهم عندما يرى ذلك ضروريًا.

ويقول محمد بن لبابة، وجاء بعد ذلك بفترة من الزمن، عن هذا الثالوث من العلماء الذى أعطى المذهب المالكى فى الأندلس طابعه الخاص، وصورته المميزة: «فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك بن حبيب، وراويها يحيى بن يحيى»، واشتهر عبد الملك بن حبيب بكتابه «الواضحة»، وهو تفسير لموطأ الإمام مالك، ومن أهم تلاميذه محمد العتبى، المتوفى عام ٢٥٥ هـ - ٨٦٩م وألف كتاب «المستخرجة من الأسمعة»، وهو المعروف باسم «العتبية»[1]، «ولها عند أهل أفريقية القدر العالى، والطيران الحثيث»، على حد تعبير ابن حزم، ومن كبار المالكية أيضا فى الأندلس: يحيى بن إبراهيم بن مزين، وهو من قرطبة كذلك، وعاش فى العصر نفسه، وألف كتبا منها: تفسير الموطأ، والمستقصية، وهو كتاب استقصى فيه علل الموطأ ومعانيه، «وآخر فى رجال الموطأ، وما لمالك عن كل واحد منهم من الآثار فى موطئه»، وكان محمد بن لبابة، المتوفى عام ٣١٤هـ - ٩٢٦م، وهو من الموالى، أشهر قاض فى قرطبة بعد إمارة عبد الرحمن الثانى،

---

(١) هذا الكتاب فيما يبدو يحتوى على دراسة للمسائل الفقهية التى جمعت سماعا من أصحاب مالك وتلاميذه وكان موضع التقدير الكبير فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وفيما بعد شرحه ابن رشد الفقيه فى كتاب ضخم أعطاه عنوانا: «كتاب البيان والتحصيل»

وصاحب «الكتاب المنتخب»، [ويقول عنه ابن حزم : ما رأيت لمالكى قط كتابا أنبل منه فى جمع روايات المذهب، وشرح مستغلقها، وتفريع وجوهها]، وجانب كبير من فتاوية أوردها ابن سهل فى مدونته.

وفيما تلا ذلك، وحتى نهاية عصر الخلافة، أصبح فقهاء المالكية فى قرطبة العاصمة، وفى بقية مدن الأندلس الكبرى، طائفة كبيرة، ولم يعودوا يهتمون بتفسير موطأ الإمام مالك، أو «مدونة» سحنون القيروانى، وإنما تفرغوا للتأليف فى لون من كتب «الطبقات»، واشتهر من بينهم بخاصة فى هذا المجال : عبد الله بن أبى دليم، وأحمد بن عفيف.

○ دخول المذهبين الشافعى والظاهرى :

فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى أبدى الجغرافى المشرقى المقدسى دهشته من أنهم فى شبه جزيرة إيبريا يقولون : «لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك»، على حين أن ثمة أتباعا كثيرين لمذهب أبى حنيفة فى المغرب، وكان الرد عليه : إن هذا من فعل الأمير، ثم يروى قصة ينسبها إلى أمير لم يذكر اسمه، وهو أن الأحناف والمالكية تناظرا يوما بين يديه، [فقال لهم : من أين كان أبو حنيفة ؟. قالوا : من الكوفة، فقال : ومالك ؟، قالوا : من المدينة. فقال : عالم دار الهجرة يكفينا، وأمر بإخراج أصحاب

أبي حنيفة، وقال: لا أحب أن يكون فى دولتى مذهبان][1]
ويصرح المقدسى فى فقرة أخرى بأن الأندلسيين إذا «ظهروا على حنفى أو شافعى نفوه» وهذا الرأى سوف يزداد مع الزمن وضوحا، ويكتسب أنصارا، ويطبق على نحو أشد.

والواقع أن المذهب الحنفى لم يجد أتباعا فى إسبانيا تحت حكم بنى أمية، غير أن الأمر لم يكن على هذا النحو فيما يتصل بالمذهب الشافعى، فقد تأصلت جذوره، وامتدت عميقة فى إسبانيا، منذ حكم الأمير محمد الأول، وشاهدنا على ذلك ما يرويه ابن الفرضى وابن حزم، ويظهر أن هذا العاهل كان أول أمير من الأسرة الأموية الحاكمة يتسامح، إن لم نقل يشجع، رغم تحذيرات فقهاء المذهب المالكى، مع المحاولات التى تستهدف توسيع آفاق الحياة الفقهية، فى نطاق الاتجاه السنى. وكان قاسم بن محمد بن سيار، وهو من قرطبة، داعية المذهب الشافعى فى العاصمة الأندلسية، وكان قد ارتبط به فى المشرق وقد دعا إلى ترك التقليد، والأخذ بالحجة والنظر واستنباط الأحكام الفقهية من القرآن والسنة، والاعتماد على مبدأ القياس والإجماع، وكان يدرس علمه فى قرطبه، وشمله الأمير محمد الأول برعايته، ومنحه حمايته فى مواجهة هجوم دعاة التقليد من الفقهاء، وعهد إليه فى تحرير وثائقه

(١) جاءت هذه الفقرة فى الأصل الفرنسى مجملة، وجئت بها كاملة من نص المقدسى نفسه. (المترجم)

وشروطه، وظل فى منصبه هذا إلى أن توفى عام ٢٧٦ هـ - ٨٩٠م.

وتأكد هذا الموقف المتحرر من محمد عندما مد رعايته إلى فقيه قرطبى آخر هو : أبو عبد الرحمن، بقى بن مخلد، وأشاد به ابن حزم وأطرى تفسيره للقرآن، وقال عنه. «الكتاب الذى أقطع قطعا لا استثنى فيه، أنه لا يوجد فى الإسلام تفسير مثله، ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى، ولا غيره».

وهذا العالم الأندلسى شخصية مبتكرة، وأفاض ابن حيان المؤرخ فى الحديث عنه، وأطراه كثيرًا، [وكان رجلا صالحًا متواضعًا، متقللاً من الدنيا، لم يقبل فى حياته ولاية أو منصبًا]، ورحل إلى المشرق فى طلب العلم، وسمع عددًا عظيمًا من الشيوخ، فى مكة والمدينة، ومصر ودمشق وبغداد وغيرها من مراكز العلم، واختلف إلى علماء من المالكية والشافعية أيضًا، وسمع من الإمام أحمد بن حنبل، وكان من كبار أصحابه، وآخرين، ولم يتبع مذهبًا بعينه، وإنما يصدر فيما يعرض له من القضايا بحسب ما يتراءى له، معتمدًا على القرآن والسنة.. وكان يدرس الحديث فى قرطبة، ويقرأ مسند بن أبى شيبة، وخلّف بعده نفرًا طيباً من تلاميذه ساروا على نهجه، من أبرزهم محمد بن وضاح، وقد ثار فقهاء المالكية فى قرطبة على بقى بن مخلد، واعتبروا أمره مصيبة لا يمكن السكوت عليها، لأن مسند بن أبى شيبة لا يعرض وجهة نظر أهل المدينة وحدهم، وأنما يعرض معها آراء خصومهم أيضًا،

فأثاروا عليه غضب العامة، ووشوا به عند الأمير محمد، وتحدث إليه وزيره هشام بن عبد العزيز فى هذا الأمر ودعاه إلى أن يضع له حدًّا، فاستحضره الأمير وإياهم، وتصفح الكتاب جزءًا جزءًا حتى أتى على آخره، ثم قال: لخازن كتبه: هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنه، فانظر فى نسخه لنا، ثم قال لبقى. «انشر علمك، وارو ما عندك، ونهاهم أن يتعرضوا له»، وقد توفى بقى بن مخلد فى قرطبة، عام ٢٧٦هـ=٨٨٩م، واعتبره بعض المؤرخين شافعى المذهب، على حين اعتبره آخرون مستقلا عن أى مذهب.

وعرفت إسبانيا بعد ذلك عددًا من فقهاء الشافعية تولوا تدريس المذاهب فيها، وبخاصة فى عهد الحكم الثانى[1]، على أنهم فى عهد أبيه عبد الرحمن الناصر، التزموا جانب الظل فيما يبدو، وكذلك الأمر بعد خلافة الحكم، فكان لهم الوضع نفسه أثناء حجابة المنصور بن أبى عامر، حين اشتدت قبضة المالكية على الحياة الثقافية من جديد.

وفى عهد عبد الرحمن الناصر كان ابنه الأمير عبد الله أحد الدعاة النشطين للمذهب الشافعى، وقد اتهم بالاشتراك فى مؤامرة ضد والده، وحكم عليه بالإعدام، ونفذ فيه الحكم بأمر من والده نفسه عام ٢٣٨هـ-٩٥٠م، وبانتهاء عهد الإمارة وخلال

(١) انظر: أسين بلاثيوس، ابن حزم القرطبى، جـ١، ص١٢٣-١٢٧، والمصادر المذكورة هناك.

السنوات التى حفلت بالاضطرابات والفتن وسبقت سقوط الخلافة، وجد المذهب الشافعى أنصارًا فى قرطبة، وكان ابن حزم من أبرزهم، وكالعادة كان قد درس المذهب المالكى، وتركه إلى المذهب الشافعى بعض الوقت، ثم استقر أخيرًا فى المذهب الظاهرى، وأصبح أكبر داعية له فى إسبانيا، وسخر مواهبه الأدبية والفكرية والجدلية فى خدمة هذا المذهب.

تأسس المذهب الظاهرى فى العراق، على يد داود بن على الأصفهانى، المتوفى عام ٢٧٠ هـ-٨٨٣م، ولم تمتد به الحياة طويلا فيبقى له مكان فى العالم الإسلامى الحديث مثل بقية المذاهب الأربعة ويتميز فى أصوله بتمسكه الشديد بظاهر الكتاب والسنة، ويعتبران المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامى، وهو يساعد على ازدهار منهج عقائدى يقوم على دراسة متحررة للقرآن والسنة، ولا يرفض مبدأ الاجتهاد فى التشريع. وقد جاء المذهب الظاهرى إلى إسبانيا فى نفس الوقت مع المذهب الشافعى، وكان هذا هدفا للعداء الصريح من جانب الأوساط المالكية المحافظة، وقد دخل المذهب الظاهرى إلى إسبانيا فى عهد الأمير محمد الأول، على يد عبدالله بن قاسم القرطبى، وكانت له رحلة إلى المشرق تلقى فيها العلم على داود الأصفهانى نفسه مؤسس المذهب، ويعتبر منذر بن سعيد البلوطى القاضى والخطيب الشهير، والممثل الأول للمذهب الظاهرى فى الأندلس، فى القرن العاشر الميلادى، ونعرف فى

ضوء ما أورد المؤرخون من سيرته، إذا وثقنا فيما قالوا، أنه تولى أرفع المناصب الفقهية، وأظهر فى تعامله شخصية مستقلة، وارتبط خلال عامين أمضاهما فى المشرق بالمذهب الظاهرى، وظل مخلصا له حتى وفاته فى عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦م، فكان يؤثره، ويجمع كتبه، ويحتج لمقالته، ويأخذ نفسه وذويه به، فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب مالك وأصحابه، وهو الذى عليه العمل بالأندلس، وحمل السلطان أهل مملكته عليه، وأوشك المذهب الظاهرى، ويقع فى الطرف المقابل لكل المذاهب السنية الأخرى(١)، أن يتلاشى فى قرطبة شأن المذهب الشافعى، غير أنه وجد أخيرا فى شخص ابن حزم نصيراً قويًا، ناضل المذهب المالكى فى سبيله، بقوة وشرف، وعلى أرض وطنه نفسها.

○ محاولات المعتزلة وحياة الزهد:

ثمة خطوة واحدة تفصل بين العقيدة الصحيحة والبدعة(٢)، وكثير من الأندلسين فى القرن العاشر الميلادى عبروا هذه الخطوة

---

(١) برونشفيج : حوار من العصور الوسطى حول المذهب المالكى، ص ٣٩٥.

(٢) عن المعتزلة ومذهب ابن مسرة فى الأندلس خلال عصر الخلافة، من الضرورى العودة فى المقام الأول إلى كتاب أسين بلاثيوس : «ابن مسرة ومذهبه، أصول الفلسفة الأندلسية»، فى أعماله المختارة، جـ ١، مدريد ١٩٤٦، ص ١-٢١٦، وأوجز هذه المادة جونثالث بالنثيا فى كتابه : «تاريخ الأدب الأندلسى» ص ٢٢٠-٢٢٨، وانظر أيضا : جولد تسيهر فى : مقدمته لكتاب ابن تومرت، ص ٦٣-٦٩.

وأحاطوا أنفسهم بكثير من الحيطة والحذر، حتى لا يقعوا فى قبضة محاكم لا ترحم، وقضاة يدينون بلا شفقة، وكان هذا واقعا مؤكدا وليس شيئا محتملا. ولا نعرف تفصيلا، دون ريب على التأكيد، كيف بدأت الدعوة إلى الإسماعيلية فى إسبانيا خلال حكم عبد الرحمن الناصر، ولكن يبدو أن عددا من عيون الفاطميين تولوا أمرها فى الأقاليم الأندلسية التى تطل على البحر الأبيض المتوسط، وفى شرقيه بخاصة لسهولة الوصول إليها بسبب موقعها الجغرافى، وبعدها النسبى عن قرطبة العاصمة.

وعن فترة ما قبل العامريين وما بعدهم يرد فى خاطرنا أن نسأل ما التأثير الذى يمكن أن تمارسه على جماهير الأندلس قوات مستأجرة من بنى دُمَّرو بنى برزال، قدموا من جنوب شمال إفريقيا، وينتمون إلى المذهب الإباضى، واستقروا فى قرطبة العاصمة، سواء أرادوا ذلك أنفسهم، أم غبر عن ذاته ضرورة؟. لقد أشار ابن حزم فى القرن الحادى عشر الميلادى إلى وجود نواة من الشيعة بين سكان إقليمى ألمرية وبلفيق، وكنا نود أن نعرف عنها المزيد من الأخبار. ولقد استطاع القاسم بن حمود أن يعتلى عرش الخلافة لعدة أشهر، قبل أن تسقط الخلافة نفسها بقليل، وجاهر بآرائه الشيعية وقدم نفسه كممثل لها، وهى دون شك نفس الأفكار التى كان يدعو إليها الأمراء الأدارسة، وكانت دولة الأمويين فى قرطبة قد حاصرت نشاطهم المعادى لها فى شمال المغرب خلال القرن العاشر الميلادى.

ومهما يكن، حتى لو سجل انتشار الشيعة فى إسبانيا نتائج محدودة، وغير ذات مستقبل، فمن الواضح أن المعتزلة وجدوا فى هذا القطر مجالا أوسع، وعددا أكثر من المؤيدين، يفوق بكثير ما أورده لنا المؤرخون الأندلسيون، والذين ترجموا لحياة علماء وطنهم. ومما لاشك فيه أن مذهب حرية الاختيار، أو الاستطاعة كما تسميه المدونات القديمة، كان موضع التشهير فى الأندلس، كما هو الحال مع الشيعة تماما، وهو ما يحدثنا به المقدسى صراحة، فيما أورده من رأى موجز عن الإسلام فى الأندلس، ولكن المعتزلة التزموا العمل سرا أكثر من الإسماعيلية، واستطاع أتباعها بفضل ذلك أن يدرسوا آراءها للطلاب خفية، دون أن يلحظهم أحد فى الوسط الاجتماعى، أو أن يثيروا غضب المحافظين من فقهاء المالكية، وكان هؤلاء حراساً يقظين على الاتجاه السنى المحافظ.

ومن الصعب أن نحدد الزمن الذى بدأ فيه المعتزلة يتسللون تدريجيا بين أكثر عناصر الشعب الأندلسى ثقافة، ونعتقد أن ذلك لم يحدث على أية حال قبل حكم الأمير محمد الأول، وبالدقة فى اللحظة التى بدأت فيها مؤلفات الجاحظ، وكان تلميذاً للنظام أحد شيوخ المعتزلة الكبار، تشيع على نطاق واسع بين المثقفين فى قرطبة، والمدن الأخرى الهامة فى المملكة الأندلسية، والبحث فى كتاب «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضى يتيح لنا فرصة التعرف وتحديد عدد من هؤلاء المعتزلة الأندلسيين فى نهاية القرن

التاسع الميلادى، والذين كانوا فى الوقت نفسه قضاة يقدرهم مواطنوهم حق قدرهم حينئذ، ومن هؤلاء عبد الأعلى بن وهب، وهو من قرطبة، ودرس فى المشرق وفى أفريقية، وكان من بين الفقهاء المشهورين فى مسقط رأسه وكان له مؤيدون من الفقهاء المشهورين أمثال ابن وضاح، وابن لبابة، وقد اعتبر هذا قبل وفاته عام ٢٦٢ هـ - ٨٧٥م نصيرا للأفكار المبتدعة، التى تؤمن بحرية الاختيار، وتنفى خلود الروح[1].

ويمثل خليل بن عبد الملك بن كليب[2]، وهو من قرطبة، حالة خاصة فى عالم المعتزلة الأندلسيين، وقد اشتهر فيما بعد باسم خليل الغفلة*، وكان معاصرا لبقى بن مخلد، ورحل إلى المشرق، ودرس على كثيرين هناك، وبعد أن عاد إلى الأندلس أخذ يتحدث فى صراحة عن استقلال الإرادة، وحرية الإنسان فى أفعاله، ورفض مبدأ الجبرية، أو الإيمان بالقضاء والقدر[3]، غير أنه كان يتحاشى أن يجيب على الأسئلة الخطيرة، [وكان خليل مشهورا،

---

(١) انظر: ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، الترجمة رقم ٨٣٥ فى طبعة مدريد، ورقم ٨٣٧ فى طبعة القاهرة؛ وأسين بلاثيوس، ابن مسرة، ص ١٨٠.

(٢) انظر ابن الفرضى، الترجمة ٤١٧، وأسين بلاثيوس: ابن مسرة، ص ١٨١-١٨٢.

* قلت وتوجد ترجمته فى الطبعة المصرية تحت رقم ٤١٩، وذكر هناك: «المعروف بخليل الفضلة»، وهو خطأ، والصحيح الغفلة.

(المترجم)

(٣) جولد تسيهر، كتاب ابن تومرت، المقدمة ص٦٧.

أخبرنى بعض أصحابنا عن أحمد بن بقى، قال. سمعت أبا عبيدة يقول : حضرت الشيخ يعنى بقيا، وقد أتاه خليل فقال له بقى : أسالك عن أربع. فقال : ما هى ؟، قال : ما تقول فى الميزان ؟، قال : عدل الله، ونفى أن تكون له كفتان، فقال له : ما تقول فى الصراط ؟، فقال : الطريق يريد الإسلام فمن استقام عليه نجا. فقال له : ما تقول فى القرآن ؟، فلجلج ولم يقل شيئا، وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق، فقال له : فما تقول فى القدر ؟، فقال : أقول إن الخير من عند الله، والشر من عند الرجل. فقال له بقى : والله لولا حالة (؟) لأشرت بسفك دمك، ولكن قم فلا أراك فى مجلس بعد هذا الوقت][1].

ويظهر أن أحدا لم يتعرض له فى حياته بأذى، ولكن بعد موته، ولا نعرف تاريخه، اقتحم فقهاء قرطبة بيته، وأخرجوا كتبه، وأحرقت بالنار إلا ما كان فيها من كتب مسائل الفقه.

وكان لخليل الغفلة مؤيد قوى من قرطبة أيضا، وهو يحيى بن يحيى، ويعرف بابن السمينة[2]، «ورحل إلى المشرق، ومال إلى

(١) جاء الكاتب بمضمون النص فحسب، ولخطوطه جئت به كاملا، وهو فى ترجمة خليل الغفلة الواردة فى تاريخ علماء الأندلس، لابن الفوضى.

(المترجم)

(٢) انظر : ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، الترجمة رقم ١٥٧٨ فى طبعة مدريد (١٥٨٠ فى طبعة القاهرة). وصاعد الصطليطلى، طبقات الأمم، ترجمة بلاشير إلى الفرنسية ص ١٢٤. وأسين بلاثيوس : ابن مسرة، ص ١٨٢-١٨٣.

(المترجم)

كتب الحجة، ومذاهب المتكلمين، وانصرف إلى الأندلس فأصابه النقرس وكان ملازما لداره، مقصودا من ضروب الناس وكان يعلن بالاستطاعة»، وامتدحه صاعد الطليطلى لسعة ثقافته، وتنوع معلوماته، وارتآه معتزليا صريحا، وقد توفى فى ٣١٥هـ-٩٢٧م، بعد أن كوّن حوله مجموعة من الطلاب والأنصار، ولم يكن يخفى أبدا ارتباطه بمذهب الاستطاعة الذى تلقاه عن أستاذه خليل بن عبد الملك.

وبعد ذلك، خلال عصر الخلافة، طوى الصمت مذهب المعتزلة فى إسبانيا حتى لا يختلط هذا المذهب الكلامى بمذهب ابن مسرة الفلسفى، لأن التسمية، فيما يرى جولد تسيهر[1]، لم تكن بالنسبة لكتاب التراجم الأندلسيين مجرد مصطلح عائم وشامل، يمكن أن يطلق على كل الأفكار المتحررة التى تقاوم نشاط المذهب السنى المحافظ. وقد حاول بعض أتباع المعتزلة من المشارقة أن يستقروا فى إسبانيا، ولكنهم اضطروا إلى الرحيل لمجرد اكتشاف أمرهم، ولدينا لذلك مثلا حالة أبى الطيب بن أبى بردة، فقد وصل «إلى الأندلس سنة إحدى وستين وثلاثمائة (-٩٧١م) فأكرمه أمير المؤمنين المستنصر، وأمر بإجراء النزل عليه، وكان من أعلم الناس بمذهب الشافعى، وأحسنهم قياما به، ولم يصل إلى الأندلس أفهم منه بالمذهب، ولم تكن له كتب، ذكر أنها ذهبت له

---

(١) انظر مقدمته لـ«كتاب ابن تومرت» ص ٦٨.

مع مال جسيم فى المغرب، وكان ينتسب إلى الاعتزال، ورفع ذلك إلى السلطان فأمر بإخراجه من البلد، وذلك فى رجب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة »[1].

هل يمكن القول بأن المذهب فى هذه اللحظة بدأ يأخذ طريقه مباشرة إلى عامة الناس من سكان المدن غير المثقفين؟، لا يمكن أن نؤكد هذا، على الرغم من أن ابن حزم يصف سكان أحد وديان الأندلس كلهم، وهو وادى نوى على التخصيص، بأنهم من المعتزلة، وفى كل الحالات يبدو أن تطور انتشار هذا المذهب ارتبط بحياة الزهد فى الأندلس، فى هذا العصر، وبدأت معلوماتنا عنه تتسع وتكثر مع الزمن.

ويرى أسين بلاثيوس فى وضوح أن حياة الزهد كانت الطريقة الوحيدة المثلى والممكنة فى عصر الخلافة لمن يريدون أن يفروا من سيطرة رجال الدين فى الأندلس، وأن يبثوا تعاليمهم فى دائرة ضيقة من الأتباع والطلاب والمؤيدين، دون أن يتعرضوا لخطر جسيم إذا ما بشروا بها فى وضح النهار، «وقد اكتسب هؤلاء الزهاد، بورعهم المثالى، مكانة رفيعة عند السلطان والفقهاء، ولدى عامة الشعب بخاصة، وقد استعانوا بالتفسيرات الرمزية للمتعقدات السنية، واستطاعوا أن يوفقوا رمزيا بين نصوصها

---

(١) انظر: ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، الترجمة رقم ١٤٠١، (١٤٠٣ فى طبعة القاهرة). وجولد تسيهر، مقدمة لـ «كتاب ابن تومرت»، ص ٦٧.

وأفكار البدع الباطنية المشرقية[1]. وكانوا يشكلون على نحو ما رواد الصوفية فى المغرب الإسلامى، فاعتزلوا الحياة فى المدن، واعتكفوا فى رءوس الجبال والغابات، واجتهدوا فى تعذيب أبدانهم وحرمان أنفسهم من اللذات، [وآثروا الفقر عن طواعية، وكانوا يقطعون سواد الليل فى تلاوة القرآن، ويصومون الدهر كله، ولا يأكلون إلا مرة واحدة فى الأسبوع فى شهر رمضان، ولا يتداوون إذا مسهم مرض. ويقيمون حياتهم عزبا، ويخرجون عما بأيديهم للفقراء، أو يفتدون به الأسرى، ويقطعون العمر متوحدين بإنفسهم فى عزلة وتأمل، أو يرابطون على الثغور لمحاربة النصارى طلبا للشهادة][2]، وكانوا فى حياتهم أشبه ما يكون بحياة رهبان المستعربين الذين كانوا ينتشرون فى ذلك الوقت، داخل أديرتهم، فى سلاسل الجبال الأندلسية، وكان المؤرخون وكتاب التراجم يطلقون على هؤلاء الزهاد عادة اسم : عابد، أو ناسك، أو زاهد، وأحيانا صوفى، ويقولون عنهم إن الجانب الأكبر منهم قطع بإرادته كل صلاته بالحياة العامة، على حين كان آخرون على العكس من هؤلاء، أبقوا على صلاتهم بالأوساط الثقافية، ولكنهم

---

(١) أسين بلاثيوس : ابن مسرة، ص ٣٥.

(٢) اعتمد الكاتب فى الفقرة التى سبقت النص الذى بين المعقوفتين على أسين بلاثيوس، فى كتابه عن ابن مسرة، وجاء بالفكرة موجزة، وأضفت إليها من المصدر نفسه مايزيدها تفصيلا لأهميتها، ووضعتها بين معقوفتين.

(المترجم)

تميزوا بغرابة الملبس، وبالحياة القاسية، وممارسة الأعمال اليدوية الخشنة ليعيشوا منها، ومن حين لآخر يشاركون فى الحملات الحربية التى توجه ضد النصارى على الحدود. وقد قدم لنا الضبى فى كتابه بغية الملتمس[1] نموذجاً حيًّا لواحد من هؤلاء العباد يدعى محمد بن طاهر، فبعد عودته من رحلته إلى الشرق تنكب النزول بسكنهم العائلى فى مدينة مرسية، وابتنى لنفسه خارجها، بالقرب من قرية صغيرة تنسب لبنى طاهر، بيتا سقفه بحطب الشعر أو الطرفا، يأوى إليه، وكانت له جنينة يعمرها بيده، ويقتات بما يغرسه فيها من البقل والثمر، ولا يلبس غير الصوف الخشن، ولا يفارقها إلا للجهاد مع ابن أبى عامر وقواده، وشهد معه فتح مدينة سمورة Zamora ومدينة قلمرية Coimbra من قواعد جليقية وفى سن متأخرة من حياته ترك قريته، ورحل إلى الثغور، ورابط فى طلبيرة Talavera منها، على نهر تاجه، واشترك فى كل الحملات العسكرية على مواقع النصارى، واستشهد فى إحدى هذه الهجمات، «مقبلا غير مدبر، حميد المقام»، بعد مضى أشهر من عام ٣٧٩هـ-٩٨٩م[2].

(١) البغية، الترجمة رقم، ١٥٤.

(٢) وثمة زاهد أندلسى آخر، اشتهر فى القرن العاشر الميلادى وهو عثمان بن محامس، من أهل أستجة، وتوفى عام ٣٥٦هـ-٩٦٦م، انظر: ابن حزم، كتاب الأخلاق والسير، طبعة القاهرة ١٩٠٨، ص٥٦، وترجمة أسين بلاثيوس لهذا الكتاب، مدريد١٩١٦، ص٨٤. وابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، للترجمة ٨٩٩ فى طبعة مدريد (٩٠١ فى طبعة القاهرة) والضبى، البغية الترجمة رقم١١٩٣.

وخلال عصر الخلافة بدأت إسبانيا الإسلامية تستقبل أعداداً من هؤلاء النساك الجوالين، وسوف يزدادون عدداً فى القرون التالية، وفى شرقى الأندلس بخاصة، وفى مملكة غرناطة من بعد وأفسح ابن الفرضى فى كتابه «تاريخ علماء الأندلس» ترجمة لصوفى من خراسان، أمضى فترة قصيرة فى زيارة قرطبة، عام ٣٥٨هـ-٩٦٩م[١]، ولصوفى آخر من أنطاكية، وصل الأندلس عام ٣٧٢هـ-٩٨٣م[٢].

○ ابن مسرة وأتباعه :

فى السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادى، وفى صومعة صغيرة يمتلكها فى جبل قرطبة، وتبعد عن العاصمة بضعة أميال، بدأ شخص يدعى محمد بن عبد الله بن مسرة يفكر، تحت مظهر العابد التقى الورع، فى نظام فلسفى وعقيدى جديد تماما على الأندلسيين، وأخذ يدرسه لمجموعة صغيرة من طلابه ومريديه، وسرعان ما استرعى أنظار مواطنيه من أهل قرطبة، ونال احترامهم، بما عليه من أخلاق قويمة، وحياة زاهد عابد قاس على نفسه، ولكن الأراجيف لم تلبث أن انتشرت حول طبيعة تعاليمه، وقيل إنه كان يلقن تلاميذه أفكارا قريبة من أفكار المعتزلة، وبناء

---

(١) ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، الترجمة رقم٥٠.

(٢) المصدر السابق، الترجمة رقم ٢٠٢ (رقم٢٠٤ فى طبعة القاهرة).

منهج فلسفى يقوم على مبدأ وحدة الوجود، ولم يكن اتهامه بالإلحاد بعيدا، ولم يجد ابن مسرة مفرا من الهجرة، فرحل إلى المشرق، وجال بين بلدانه، وأدى فريضة الحج ثم عاد إلى قرطبة، ولزم صومعته، وبدأ حياة الزهد والتعليم، ولكن الإرهاق والحرمان أوديا بصحته، فمات عن أقل من خمسين عاما، فى نهاية سنة ٣١٩هـ - ٩٣١م.

ليست لدينا معلومات وافية عن حياة ابن مسرة نستطيع أن نعرف منها ما إذا كان قد انتهى إلى مذهبه قبل أو أثناء زيارته للمشرق، ولكن جولد تسيهر[١] يرى أنه تأثر بنظرية الأفلاطونية الحديثة، وكانت منتشرة فى المشرق فى ذلك الوقت، وجاء المذهب الإسماعيلى صورة كاملة له، واعتمد بخاصة، كمصدر أساسى له على الكتابات التى تنسب إلى إمبدو قليس زائف، ويرى الباحث نفسه، استنادا إلى ابن الفرضى، أن ابن مسرة «كان يقول بالاستطاعة، وإنفاذ الوعيد، ويحرف التأويل فى كثير من القرآن وكان مع ذلك يدعى التكلم على تصحيح الأعمال، ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق، فى نحو من كلام ذى النون الإخميمى، وأبى يعقوب النهر جورى، وله لسان يصل به إلى تأليف الكلام، وتمويه الألفاظ، وإخفاء المعانى». كما أنه كون

(١) فى مقدمة «كتاب ابن تومرت» ص ٦٨.

مدرسة جعلت إسلام الأندلس ينبض بحركه خفية تدعو إلى حرية الفكر.

أما النتائج التى انتهى إليها أسين بلاثيوس[1] فى دراسته القيمة عن ابن مسرة فتختلف بعض الشيء فهو يرى وجوب الفصل عند دراسة أفكار ابن مسرة بين المنهج اللاهوتى والمنهج الفلسفى، وحاول أن يتبين خصائص كلا منهما معتمدا على آراء ابن حزم وصاعد الطليطلى، والاثنان أندلسيان، وعلى اثنين مشرقيين هما : الشهر زورى، والشهر ستانى. وتكمن أصالة فلسفة ابن مسرة فى الاستفادة من فكرة وحدة الوجود، التى تقوم عليها الأفلاطونية الحديثة، وتنسب إلى أمبد وقليس زائف فى إنيادة أفلاطون، تقول «بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية»، وعلى هذا المذهب بنى ابن مسرة فكرته عن «كونية العالم». وعقيدته فى الإرادة الحرة، وهو لا يرى العلم الإلهى السابق، ولا تطهير الروح خلال العالم المادى حتى عودتها إلى قلب العالم الروحانى.

للمرة الأولى تظهر فى إسبانيا الإسلامية آراء عقلية تؤدى إلى سخط الجمهور بعامة، رغم أنها جذبت إليها بعض القلة، ومن بين هؤلاء كثيرون عاشوا بعد ابن مسرة، وأذاعوا أفكاره دون أن

---

(١) يمكن أن نجد هذا موجزا فى المقال الذى كتبه عن ابن مسرة ونشره فى ملحق دائرة المعارف الإسلامية، ص ٩٩-١٠١.

يخشوا شيئا، كما نشروا كتبه، وفقدت اليوم كلها، ووجدت حينذاك كثيرا من القراء اليقظين، القادرين على إثارة رد فعل عند فقهاء قرطبة. وقد حدث فى نهاية حكم عبد الرحمن الناصر، وفى عام ٣٥٠هـ - ٩٦١م بالدقة، أن منح الخليفة سلطة كاملة للفقيه محمد بن يبقى بن زرب، وهو من العاصمة، وتميز بمعارضته العنيفة لمذهب ابن مسرة، ولفقيه آخر وهو أبو محمد بن الحسن الزبيدى الإشبيلى، مؤدب الخليفة هشام المؤيد فى صباه، لحسم هذا الأمر، فأوقف ابن زرب أنصار ابن مسرة، وأجبرهم على أن يعترفوا بذنبهم، وأن يرتدوا عن أفكارهم علنا، وأحرق فى حضورهم، خارج المسجد الجامع فى قرطبة، ما نسخوه من كتب ورسائل أستاذهم. وفيما بعد عندما تولى ابن زرب منصب قاضى الجماعة فى العاصمة، بعد موت الحكم الثانى أعاد التحقيق ثانية مع أتباع ابن مسرة، بموافقة الحاجب المنصور بن أبى عامر، وكانت ملاحقتهم قد خفت شيئا، بلاشك، فى بدء خلافة الحكم الثانى.

وحول عام ٣٦٨هـ - ٩٧٩م، اكتشفت مؤامرة ضد الخلافة الأموية، وكان من بين المتهمين فيها عبد الملك بن منذر أحد أبناء القاضى الشهير منذر بن سعيد البلوطى الذى توفى قبل ذلك بخمسة عشر عاما، وكان عبد الملك يتولى خطة الرد، وحكم عليه بالإعدام وصلب، وقد اتهم أيضا بأنه معتزلى، وأنه ضم ثلاثة من إخوته هم : سعيد وعبد الوهاب، والحكم بخاصة إلى مذهب ابن

مسرة وأخذوا جميعا يبثون مبادئه فى قرطبة، وساعدهم فى ذلك نظام العبادة فى الخلوة التى أقامها ابن مسرة فى جبل قرطبة، وتكوين مقر مماثل للمريدين من أتباع المذهب فى بجانة، وفيها يبدو حدث انقسام فى هذه المدرسة، وكانت معروفة فى المشرق.

وعلى أية حال فإن حماسة فقهاء المالكية المتعصبين فى الأندلس لم تتمكن، حتى مع تشجيع العامريين لهم، من إخراج أتباع ابن مسرة من شبه جزيرة إيبريا، أوحتى منع مبادئه من الانتشار والتطور، ولقد كان قليلا للغاية ما عرف عن قدراته الرائدة على أرض الأندلس، وعن جهوده التأملية والفلسفية، وعن حركته الفكرية، ولكن هذا كله سوف يعلو وينطلق، ابتداء من نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، ليحدد بالدقة تطور وتقدم الحياة الصوفية الجماعية ذات الملامح الإسبانية الواضحة.

تواريخ هامة
ذات صلة بالتاريخ السياسى والاجتماعى والثقافى والأثرى

● التاريخ الهجرى بين قوسين، وإهماله يعنى أن المصادر العربية لم تشر إلى هذا الحادث.

٧١٠ (٩١)	عبور طريف بن مالك إلى إسبانيا فى سرية استطلاعية.
٧١١ (٩٢)	حملة طارق بن زياد.
٧١٢ (٩٣)	عبور موسى بن نصير إلى إسبانيا
٧١٣ (٩٤)	توقيع معاهدة الصلح بين تيودومير وعبد العزيز بن موسى بن نصير.
٧١٨	ثورة بلايو فى مقاطعة أشتورياش، وربما فى هذا التاريخ حدثت وقعة كوبادونجا.
٧١٩ (١٠٠)	السمح بن مالك والى الأندلس يختار قرطبة مقرًا له. وفاة التابعى حنش الصنعانى.

	بعض أعيان أفريقية يعبرون المضيق ليستقروا فى إسبانيا.
٧٢٩(١١١)	ثورة منوسة فى شمال إسبانيا.
٧٣١(١١٣)	مولد عبد الرحمن بن معاوية الداخل.
٧٣٢(١١٤)	موقعة بواتييه، أو بلاط الشهداء، كما تسمى فى المصادر العربية.
٧٤١(١٢٣)	قيام البربر فى إسبانيا بثورة عامة.
٧٤٢(١٢٥)	توطين جند بلج بن بشر من السوريين فى أمكنة مختلفة من إسبانيا. جنوب إسبانيا يصبح شرقيًّا مرة أخرى.
٧١٥-٧٥٣(١٣٤-١٣٦)	المجاعة تجتاح إسبانيا البربر يهجرون مقاطعات الشمال ويعودون إلى المغرب.
٧٥٥(١٣٨)	عبد الرحمن الداخل يصل إلى إسبانيا، وينزل فى ثغر المنكب.
٧٥٦(١٣٨)	بداية إمارة عبد الرحمن الداخل.
٧٥٩(١٤٢)	مقتل يوسف الفهرى والصميل بن حاتم.
٧٧٧	والى سرقسطة المسلم يزور شارلمان فى بادريون.

٧٧٨(١٦٢)—	شرلمان يحاصر سرقسطة.
	وقعة باب الشزرى رنسفو Roncevamx.
٧٧٩(١٦٢)	انهيار جانب من قنطرة قرطبة.
٧٨٤(١٦٨)	تشييد قصر قرطبة.
٧٨٥(١٦٩)	تحول معظم الناس من المسيحية إلى الإسلام.
٧٨٨(١٧٢)	وفاة عبد الرحمن الداخل، ومبايعة هشام أميرًا على الأندلس.
	المناداة بإدريس الأول خليفة فى وليلة (Volubilis) (بالقرب من مدينة مكناس الحالية فى المغرب).
٧٨٨-٧٩٦(١٧٢-١٨٠)	ترميم قنطرة قرطبة.
	تصميم المسجد الجامع بقرطبة.
٧٩٣(١٧٧)	وفاة إدريس الأول مسمومًا.
٧٩٥(١٧٩)	وفاة الإمام مالك.
٧٩٦(١٨٠)	وفاة هشام الأول. ومبايعة الحكم الأول أميرًا.
٨٠٠	المناداة بشرلمان إمبراطورًا.

٨٠٧(١٩١)	ثورة طليطلة ومذبحة الخندق، أو وقعة الحفرة.
٨٠٨(١٩٣)	بناء إدريس الثانى لمدينة فاس.
٨١٦(٢٠٠)	دخول المذهب المالكى إسبانيا.
٨١٧(٢٠٢)	هيج الربض فى قرطبة.
٨٢٢(٢٠٦)	وفاة الحكم الأول، والمناداة بعبد الرحمن الثانى أميراً
	وصول زرياب إلى إسبانيا وبدء التأثير العباسى.
٨٢٥-٨٣١(٢١٠-٢١٦)	عبد الرحمن الثانى ينشئ مدينة مرسية.
٨٢٩(٢١٤)	بناء المسجد الجامع فى إشبيلية.
٨٣٢(٢١٨)	تشييد المسجد الجامع فى جيان.
	إضافة صحنين جانبيين إلى المسجد الجامع فى قرطبة.
٨٣٥(٢٢٠)	عبد الرحمن الثانى يبنى قلعة ماردة.
٨٣٩(٢٢٥)	تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة.
٨٤٤(٢٣٠)	احتلال النورمانديين مدينة إشبيلية.
٨٤٨(٢٣٤)	وفاة الفقيه يحيى بن يحيى الليثى.
٨٥١	استشهاد الفتاتين فلورا ومارية فى قرطبة

٨٥٢(٢٣٨)	وفاة عبد الرحمن الثانى، ومبايعة محمد الأول.
٨٥٣	استيلاء النورمان على أورليان وباريس.
٨٥٣(٢٣٨)	وفاة ابن حبيب، المؤرخ والفقيه.
٨٥٥(٢٤١)	تشييد قلعة رباح (فى الإسبانية calatrava)
٨٥٧(٢٤٣)	وفاة زرياب فى قرطبة.
٨٥٩(٢٤٥)	بناء جامعى القرويين والأندلس فى فاس. استشهاد يولوجيوس وليو كريشيا فى قرطبة. استيلاء الفيكنز على ثغر الجزيرة الخضراء.
٨٦٤(٢٥١)	وفاة الشاعر يحيى الغزال.
٨٦٨(٢٥٥)	وفاة الفقيه العتبى.
٨٧٣(٢٦٠)	القحط يعم إسبانيا.
٨٧٥(٢٦٢)	البحارة الأندلسيون يؤسسون مدينة تنيس على ساحل الجزائر.
٨٨٣(٢٧٠)	ابن قسى يعيد ترميم مدينة لاردة.
٨٨٦(٢٧٣)	بناء بيت المال فى المسجد الجامع بقرطبة. وفاة محمد الأول، ومبايعة المنذر أميراً.
٨٨٨(٢٧٥)	وفاة المنذر والمناداة بعبد الله أميراً.

٨٨٩(٢٧٦)	وفاة الفقيه بقى بن مخلد.
٨٩٠(٢٧٧)	مولد عبد الرحمن الناصر.
٨٩١(٢٧٨)	استيلاء عبد الله على مدينة إشبيلية ونهبها.
٩٠١(٢٨٨)	بناء المسجد الجامع فى لاردة.
٩٠٥(٢٩٢)	وفاة عبدا لله بن قاسم بن هلال، وهو الذى أدخل المذهب الظاهرى إلى إسبانيا.
٩١٢(٣٠٠)	وفاة الأمير عبد الله، وارتقاء عبد الرحمن الناصر.
٩١٣(٣٠١)	سعيد بن منذر، والى إشبيلية من قبل الأمويين، يهدم أسوار المدينة ويبنى القصر.
٩١٥(٣٠٢)	مولد الحكم الثانى. القحط يعم إسبانيا.
٩١٨(٣٠٥)	وفاة الثائر ابن حفصون.
٩١٩(٣٠٧)	الطاعون يجتاح إسبانيا.
٩٢٠(٣٠٨)	استيلاء المسلمين على مدن أوسما osma وشنت اشتبين دى غورماج San Esteban de Gormaz وكلونية clunia ومويث Muez. (وهى مدن صغيرة فى شمال إسبانيا).
٩٢٨(٣١٥)	عبد الرحمن الناصر يستولى على حصن

بربشترو. بناء دار السكة فى قرطبة.

٩٢٩(٣١٦)	عبد الرحمن الناصر يعلن نفسه خليفة وأميراً للمؤمنين.
٩٣١(٣١٩)	استيلاء الأمويين على مدينة سبتة، (وتقع فى المغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولما تزل بيد الإسبان).
	بناء المقر الأموى فى بلجوناش بالقرب من سبتة.
	وفاة الفليسوف الأندلسى ابن مسرة فى قرطبة.
٩٣٢(٣٢٠)	عبد الرحمن الناصر يحتل مدينة طليطلة.
٩٣٦(٣٢٥)	بناء مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة.
٩٣٧(٣٢٦)	مولد الشاعر ابن هانئ الأندلسى.
٩٣٩(٣٢٦)	هزيمة الجيوش القرطبية فى شنت مانقش Simancas والخندق.
٩٤٠(٣٢٨)	وفاة الأديب الشاعر ابن عبد ربه، صاحب كتاب «العقد الفريد».
٩٤١(٣٢٩)	إمداد المسجد الجامع فى قرطبة بالمياه، بواسطة قناة.

٩٤٢(٣٣٠)	وصول أبى على القالى إلى قرطبة
٩٤٤(٣٣٣)	عبد الرحمن الناصر ينشئ دارا لبناء السفن فى طرطوشة.
٩٤٥(٣٣٤)	قدوم سفارة بيزنطية إلى قرطبة.
٩٤٦(٣٣٥)	الطاعون يجتاح إسبانيا.
٩٥١	وفاة روميرو الثانى ملك ليون.
٩٥١(٣٤٠)	بناء مئذنة جديدة فى المسجد الجامع بقرطبة.
٩٥٣	سفارة من خوان دى جورث Juan de Gorz فى قرطبة.
٩٥٤(٣٤٣)	الفاطميون يهاجمون ساحل إسبانيا عند المرية.
٩٥٥(٣٤٤)	وفاة المؤرخ الإندلسى أحمد الرازى. تأسيس عبد الرحمن الناصر لمدينة المرية.
٩٥٦(٣٤٥)	بناء المسجد الجامع فى طرطوشة. سفارة قرطبية إلى نبرة. وفاة أوردنيو الثالث ملك ليون.
٩٥٨(٣٤٨)	تدعيم الواجهة الشمالية فى المسجد الجامع بقرطبة.

٩٦٠(٣٤٩)	استيلاء جوهر الصقلى القائد الفاطمى على مدينة فاس.
٩٦١(٣٥٠)	وفاة عبد الرحمن الناصر، وارتقاء الحكم الثانى الملقب بالمستنصر.
٩٦١-٩٦٦(٣٥٠-٣٥٥)	الحكم الثانى يقوم بتوسيع المسجد الجامع فى قرطبة.
٩٦٦(٣٥٥)	النورمانديون يتزلون على شواطئ الأتلس التى تطل على المحيط الاطلنطى.
	وفاة القاضى منذر بن سعيد البلوطى.
٩٦٨(٣٥٧)	الحكم الثانى يبنى قلعة حامات إنشيتا.
٩٧٠	موت حسداى بن شبروط.
	النورمانديون يستولون على شنت ياقب Santiago.
٩٧٢(٣٦٢)	سفارة بيزنطية فى قرطبة.
٩٧٣(٣٦٣)	بناء المدينة العامرية الزاهرة لسكنى المنصور وحاشيته، فى ضواحى قرطبة.
٩٧٦(٣٦٦)	وفاة الحكم الثانى، ومبايعة هشام الثاق خليفة.
٩٧٧(٣٦٧)	وفاة المؤرخ ابن القوطية.

٩٧٨(٣٦٨)	خلع الوزير المصحفى، جعفر بن عثمان، أبو الحسن.
٩٨٠(٣٧٠)	المنصور بن أبى عامر يعيد تنظيم الجيش.
٩٨١(٣٧١)	حملة المنصور ضد ليون، واستيلاؤه على شنت ما نقش.
٩٨٥(٣٧٤)	حملة المنصور بن أبى عامر على قطلونية، واستيلاؤه على برشلونة عاصمتها.
٩٨٨(٣٧٧)	استيلاء المنصور على مدن قورية وليون وسمورة.
	المنصور يقوم بتوسيع المسجد الجامع فى قرطبة.
	مولد المؤرخ الأندلسى العظيم ابن حيان.
٩٨٩(٣٧٨)	وفاة الشاعر ابن هانىء الأندلسى.
٩٩٤(٣٨٤)	مولد ابن حزم فى قرطبة.
٩٩٧(٣٨٧)	المنصور يغزو جليقية أو غاليسية، ويستولى على شنت ياقب.
	الأمويون يهزمون زيرى بن عطية فى المغرب.

٩٩٩	وفاة برمودو الثالث ملك ليون، وتولية الفونسو الخامس.
١٠٠٢(٣٩١-٣٩٢)	المنصور بن أبى عامر يغزو قشتالة.
	وفاة المنصور فى مدينة سالم ودفنه هناك.
	عبد الملك المظفر ابنه يتولى الحجابة بعده.
١٠٠٣(٣٩٣)	حملة إسلامية ضد قطلونية.
١٠٠٥(٣٩٥)	حملة إسلامية ضد جليقية.
	إقامة الخطبة باسم هشام الثانى فى مسجد القرويين الجامع فى فاس بالمغرب.
١٠٠٦(٣٩٦)	حملة إسلامية ضد قشتالـة، وانتصار المسلمين فى كلونية.
	عبد الملك يحمل لقب المظفر.
	حملة إسلامية ضد ينبلونة.
١٠٠٨(٣٩٩)	وفاة المظفر، وتولى عبد الرحمن شنجول الحجابة، تنازل هشام الثانى، وتولى محمد المهدى الخلافة، والمناداة بسليمان المستعين خليفة.
	وفاة محمد المهدى.
	نهب مدينة الزاهرة.

١٠١٠(٤٠٠-٤٠١) هشام الثانى يتولى الخلافة للمرة الثانية.
الطاعون يجتاح إسبانيا.
تدمير قصر الرصافة فى قرطبة.

١٠١١(٤٠١) تأسيس الأمارة العامرية فى بلنسية.

١٠١٢-١٠١٣(٤٠٣) وفاة الشاعر يوسف الرمادى؛ والمؤرخ ابن الفرضى.

١٠١٦(٤٠٦-٤٠٧) استيلاء على بن حمود على مدينة قرطبة.
حملة مجاهد العامرى ضد سردينية.
وفاة على بن حمود وارتقاء القاسم بن حمود.

١٠١٧(٤٠٨) عبد الرحمن الرابع يرتقى الخلافة، ويتلقب بالمرتضى.
وفاة الكونت شانجه غرسية.
بدء الحملات الصليبية البورجونية ضد إسبانيا الإسلامية.

١٠٢٣(٤١٤) عبد الرحمن الخامس، الملقب بالمستظهر، يتولى الخلافة.
ارتقاء محمد الثالث، الملقب بالمستكفى.
وفاة إسماعيل بن عبّاد.

١٠٢٧(٤١٨) ارتقاء هشام الثالث، الملقب بالمعتضد. ربما

	فى هذا العام حرر ابن حزم كتابه طوق الحمامة فى مدينة شاطبة.
	وفاة ابن برد الأكبر فى سرقسطة.
١٠٢٨ (٤١٩)	وفاة خيران الصقلبى فى مدينة المرية.
	وفاة ألفونسو الخامس ملك ليون وارتقاء ابنه برمودو الثالث.
١٠٣٠(٤٢٠-٤٢١)	سقوط الأسرة الأموية نهائيًا فى إسبانيا.
	زاوى بن زيرى يعود إلى إفريقية.
	وفاة الشاعر ابن دراج القسطلى.
	إعادة بناء أسوار مدينة بطليوس.
١٠٣٤(٤٢٦)	وفاة الأديب الشاعر والناقد أبو عامر بن شهيد
١٠٣٥	وفاة شانجه الكبير، وارتقاء فرناندو الأول.
١٠٣٧	وفاة برمودو الثالث ملك ليون فى موقعة تمرون
١٠٣٨(٤٢٩)	وفاة زهير الصقلبى فى المرية.
	وفاة حبوس بن زيرى وارتقاء باديس ابنه إمارة غرناطة.
١٠٤١(٤٣٣)	وفاة القاضى محمد بن عباد وارتقاء ابنه المعتضد الإمارة فى إشبيلية.

١٠٤٣(٤٣٥) وفاة أبو الحزم بن جَهْور، وتولى أبى الوليد ابن جهور إمارة قرطبة بعده.

١٠٤٤(٤٣٦) وفاة مجاهد الدانى.

١٠٤٥(٤٣٧) وفاة عبد الله بن الأفطس فى بطليوس، وتولى المظفر بن الأفطس بعده.
مولد السيد القنبيطور.

١٠٥٢-١٠٥٣(٤٤٤) وفاة أبى عمرو الدانى فى مدينة دانية.

١٠٥٣(٤٤٥) حملة فرناندو الأول ضد مملكة طليطلة.
وفاة ابن برد الأصغر فى المرية.

١٠٥٦(٤٤٨) وفاة ابن النغرلة وزير غرناطة اليهودى.

١٠٥٧(٤٤٩) باديس يستولى على مملكة بنى حمود فى مالقة ويضمها إلى إمارته.
حملة فرناندو الأول ضد مملكة بطليوس.
الاستيلاء على مدينتى فيسيو ولاميجو.

١٠٥٨(٤٥٠) مولد ابن خفاجة فى جزيرة شقر.
ضم إمارة رندة إلى مملكة إشبيلية.

١٠٦٢(٤٥٤) تأسيس مدينة مراكش.

١٠٦٣-١٠٦٤(٤٥٦) استيلاء فرناندو الأول على مدينة قورية.

	استيلاء النورمانديين الفرنسيين على مدينة بربشترو.
	وفاة ابن حزم.
١٠٦٥(٤٥٧)	ابن هود يسترد مدينة بربشترو.
	وفاة فرناندو الأول ملك قشتالة وليون وتقسيم دولتيه بين أبنائه.
١٠٦٦(٤٥٩)	مذبحة يهود غرناطة.
	وفاة العالم اللغوى ابن سيده.
١٠٦٧(٤٥٩-٤٦٠)	استيلاء يوسف بن تاشفين على مدينة فاس.
	وفاة الشاعر أبو اسحاق الإليبرى.
١٠٦٨(٤٦١)	وفاة المعتضد وارتقاء المعتمد، واستيلاء بنى عباد على قرطبة.
١٠٧٠(٤٦٢-٤٦٣)	وفاة العالم المؤرخ صاعد الطليطلى.
	وفاة ابن زيدون الشاعر.
١٠٧٢	مقتل شانجه الثانى فى سمورة، بعد أن تغلب على ألفونسو السادس فى جولبخيرة.
	ألفونسو السادس وكان لاجئًا فى بلاط طليطلة عند أميرها المسلم يخلفه على العرش.

١٠٧٤	السيد القنبيطور يتزوج من خيمينا. نقل رفات سان إسيدورو من إشبيلية إلى ليون.
١٠٧٥(٤٦٧)	وفاة المأمون بن ذى النون أمير طليطلة. وفاة باديس بن حبوس أمير غرناطة.
١٠٧٦(٤٦٩)	وفاة المؤرخ ابن حيان
١٠٧٨(٤٧١)	قدوم الشاعر ابن حمديس الصقلى إلى إسبانيا
١٠٨٠(٤٧٣)	بناء الجعفرية فى سرقسطة.
١٠٨١	نفى السيد القنبيطور..
١٠٨١(٤٧٤)	وفاة الفقيه أبى الوليد الباجى فى مدينة المرية.
١٠٨٢(٤٧٥)	وفاة المستعين بن هود.
١٠٨٣(٤٧٦)	وفاة العالم اللغوى الأعلم الشنتمرى.
١٠٨٤(٤٧٧)	مولد على بن يوسف بن تاشفين مصرع الوزير الشاعر ابن عمار.
١٠٨٥(٤٧٨)	استيلاء ألفونس السادس على طليطلة.
١٠٨٦(٤٧٩)	انتصار المسلمين فى موقعة الزلاقة.
١٠٨٨(٤٨١)	عودة يوسف بن تاشفين إلى إسبانيا

١٠٨٩(٤٨٢)	حصار أليط (وهو حصن بين لورقة ومرسية)
١٠٩٠(٤٨٣)	عبور يوسف بن تاشفين إلى إسبانيا للمرة الثالثة.
	خلع عبد الله بن باديس صاحب غرناطة.
١٠٩١(٤٨٤)	استيلاء المرابطين على إشبيلية.
	نفى المعتمد إلى مراكش.
	وفاة المعتصم بن صمادح صاحب المرية.
	وفاة الشاعرة ولادة بنت المستكفى.
١٠٩٢(٤٨٥)	اغتيال القادر بن ذى النون فى بلنسية.
	إسبانيا الإسلامية تصبح مقاطعة فى إمبراطورية المرابطين.
١٠٩٣(٧٨٦)	وفاة الفقيه ابن سهل.
١٠٩٤(٤٨٧)	السيد القنبيطور يستولى على بلنسية
	السيد يحكم على ابن حجاف بالموت حرقًا.
	وفاة العالم الجغرافى أبى عبيد البكرى.
١٠٩٥(٤٨٨)	مولد ابن قزمان.
	وفاة المعتمد بن عباد فى أغمات.
١٠٩٩(٤٩٢)	وفاة السيد فى بلنسية.

١١٠٢(٤٩٥)	استيلاء الأمير أبو محمد مزدالى قائد المرابطين على مدينة بلنسية.
١١٠٤	ألفونسو الأول يرتقى عرش أرجون.
١١٠٦(٥٠٠)	وفاة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين.
	وفاة الزهراوى.
١١٠٨(٥٠١)	موقعة أقليج(أو أقليش).
	وفاة الأمير شانجه.
	وفاة المستعين بن هود صاحب سرقسطة.
١١٠٩(٥٠٢-٥٠٣)	وفاة ألفونسوالسادس ملك قشتالة وليون.
	الملكة أورّاكه ترتقى العرش.
	استيلاء المرابطين على طلبيرة.
١١١١(٥٠٤)	المرابطون يستولون على شنترين، وبطليوس، وأوبورتو، ويابرة، ولشبونة.
١١١٣(٥٠٧)	وفاة الشاعر ابن اللبّانة.
١١١٨(٥١٢)	استيلاء ألفونسو المحارب على سرقسطة.
١١٢٠(٥١٤)	معركة كتندة.
١١٢١(٥١٥)	ثورة المهدى بن تومرت فى مراكش.
	بداية حركة الموحدين.
١١٢٥(٥١٩)	وفاة ابن زهر.

١١٢٦(٥٢٠) تتويج ألفونسو السابع فى ليون.
مولد الفيلسوف ابن رشد فى قرطبة.
وفاة ابن عبدون الشاعر.
وفاة الأعمى التطيلى الشاعر.
وفاة الكاتب والمؤرخ الأندلسى الطرطوشى فى الإسكندرية.

١١٣٠(٥٢٤) وفاة المهدى، والمناداة بعبد المؤمن بن على أميراً للمؤمنين.

١١٣٤(٥٢٨-٥٢٩) انتصار المسلمين فى فراجة.
وفاة ألفونسو الثالث ملك أرجون.
اغتيال الأديب الكاتب الفتح بن خاقان، مؤلف كتاب قلائد العقيان فى مراكش.
مولد الفيلسوف موسى بن ميمون فى قرطبة.

١١٣٨(٥٣٣) وفاة الشاعر ابن خفاجة.
وفاة الفيلسوف ابن باجه.

١١٣٩ استقلال البرتغال

١١٤٣(٥٣٧) وفاة على بن يوسف بن تاشفين.

١١٤٤-١١٤٥(٥٣٩) نهاية حكم المرابطين فى إسبانيا.
عصر الطوائف الثانى.

ثورة إسلامية فى مقاطعة الغرب. (فى جنوب البرتغال).

وفاة تاشفين فى وهران.

وفاة الكونت البرشلونى ريفرتر قائد جيوش المسيحيين العاملين مع المرابطين.

١١٤٦(٥٤٠) ابن ميمون يهدم سور مدينة قادش.

الموحدون يحتلون مدينة فاس.

١١٤٧(٥٤١-٥٤٢) الموحدون يستولون على مدينة مراكش.

وفاة إسحاق آخر أمراء المرابطين.

الموحدون يحتلون مدينة إشبيلية فى إسبانيا.

ألفونسو ملك البرتغال يستولى على مدينتى شنترين ولشبونة.

المناداة بابن مردنيش أميرًا فى بلنسية.

المسيحيون يستولون على مدينة المرية.

وفاة الأديب الكاتب ابن بسام صاحب كتاب «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة».

١١٤٨(٥٤٣) وفاة يحيى بن غانية.

رامون بيرانجيه الرابع يستولى على فراجه، ولاردة، وطرطوشة.

١١٥٠ (تقريبًا) تم تأليف ملحمة السيد[1].

١١٥٤ (٥٤٨) الجغرافى الإدريسى ينتهى من تأليف كتابه.

١١٥٧ (٥٥٢) الموحدون يستولون على غرناطة.

الموحدون يستردون المرية من يد المسيحيين.

١١٥٨ إرتقاء ألفونسو الثامن عرش قشتالة.

١١٥٩ (٥٥٥) وفاة الشاعر والزجال ابن قزمان.

١١٦١ (٥٥٦) عبد المؤمن بن على يؤسس مدينة جبل طارق.

١١٦٢ (٥٥٧) وفاة عبد الملك بن زهر.

١١٦٣ (٥٥٨) وفاة عبد المؤمن بن على، ومبايعة أبى يعقوب يوسف.

١١٦٥ (٥٦٠) مولد الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى فى مدينة مرسية.

١١٧١ (٥٦٧) وفاة ابن مردنيش.

أبو يعقوب يبنى المسجد الجامع فى مدينة إشبيلية ويقيم قنطرة على نهر الوادى الكبير.

١١٧٧ (٥٧٢) وفاة الشاعر الرصافى فى مالقة.

---

(١) ترجمنا نص الملحمة، وقدمنا لها بدراسة وافية، انظر: الدكتور الطاهر أحمد مكى، ملحمة السيد، دراسة مقارنة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

١١٧٩(٥٧٥) وفاة ابن خير صاحب كتاب فهرسة ابن خير.

١١٨٣(٥٧٨) وفاة ابن شكوال صاحب كتاب الصلة.

١١٨٤-١١٨٥(٥٨٠) حملة على مدينة شنترين، ووفاة أبي يعقوب وتولى ابنه أبي يوسف.

١١٨٥(٥٨١) وفاة الفيلسوف ابن طفيل فى مراكش.

١١٩٥(٥٩١) انتصار المسلمين فى موقعة الأرك.

١١٩٨-١١٩٩(٥٩٥) وفاة أبي يوسف ومبايعة محمد الناصر.

مولد الكاتب والمؤرخ والشاعر ابن الأبار.

وفاة ابن رشد فى مراكش.

١٢٠٤ وفاة الفيلسوف موسى بن ميمون.

١٢٠٧(٦٠٤) وفاة الأديب ابن الشيخ البلوى.

١٢١٢(٦٠٩) هزيمة المسلمين فى موقعة العقاب.

١٢١٤(٦١٠) مولد ابن سعيد صاحب كتاب «المغرب فى حلى المغرب»، فى المدينة الملكية، ويطلق عليها قلعة بنى سعيد.

تأسيس جامعة بالنثية بأمر ألفونسو الثامن ملك قشتالة.

وفاة ألفونسو الثامن.

١٢١٥	تأسيس جامعة سلمنقة بأمر ألفونسو التاسع ملك قشتالة.
١٢١٧	فرناندو الثالث يتولى عرش قشتالة.
١٢١٧(٦١٤-٦١٥)	ثورة ابن هود فى شرقى الأندلس.
	وفاة الرحالة ابن جبير فى مدينة الإسكندرية.
١٢٢٠(٦١٧)	تشييد برج الذهب فى إشبيلية.
١٢٢٢(٦١٩)	وفاة الأديب الشريشى فى مدينة شريش.
١٢٢٧(٦٢٤)	القحط يعم إسبانيا.
١٢٣٠(٦٢٧-٦٢٨)	إستيلاء الإسبان على جزيرة ميورقة.
	نهاية حكم الموحدين فى إسبانيا.
١٢٣١(٦٢٨-٦٢٩)	سقوط مدينتى ماردة وبطليوس.
	وفاة إدريس المأمون من الموحدين.
	المناداة بمحمد الغالب النصرى أميرًا فى الأندلس.
١٢٣٥(٦٣٣)	وفاة الأديب المؤرخ ابن دحية، صاحب كتاب المطرب فى أشعار أهل المغرب.
١٢٣٦(٦٣٣)	فرناندو الثالث ملك قشتالة يستولى على قرطبة.

١٢٣٧(٦٣٤-٦٣٥) هزيمة المسلمين فى موقعة أنيشة.
محمد الغالب النصرى يحتل غرناطة.

١٢٣٨(٦٣٦) خايمة (جاقمة فى المصادر العربية القديمة) الأول ملك أرجون يستولى على بلنسية.

١٢٤٠(٦٣٨) وفاة الصوفى العظيم محيى الدين بن عربى فى دمشق.

١٢٤٣(٦٤٠) استيلاء خايمة الأول على مرسية.

١٢٤٦(٦٤٤) الاستيلاء على جيان.
الاستيلاء على شاطبة.

١٢٤٨(٦٤٥-٦٤٦) المسيحيون يستولى على كل شرقى إسبانيا.
فرناندو الثالث ملك قشتالة يستولى على إشبيلية. وفاة عالم النبات الأندلسى ابن البيطار فى دمشق.

١٢٥١(٦٤٩) وفاة الشاعر الأندلسى ابن سهل الإشبيلى.
ترجمة كتاب كليلة ودمنة إلى اللغة القشتالية.

١٢٥٢ وفاة فرناندو الثالث وارتقاء ألفونسو العاشر عرش قشتالة.
ألفونسو التاسع يقيم جامعة سلمنقة.

١٢٥٤	ألفونسو العاشر ينشئ فى أشبيلية مدرسة للدراسات العربية واللاتينية.
١٢٥٥(٦٥٣)	وفاة المؤرخ الإسبانى البياسى فى تونس.
١٢٥٧(٦٥٥)	ألفونسو العاشر يستولى على مدينة نبلة.
١٢٥٨(٦٥٦)	مبايعة المرينى أبى يعقوب يوسف فى مراكش. حول هذا التاريخ توفى الشاعر والأديب ابن عميرة.
١٢٦٠(٦٥٨)	إعدام ابن الأبار، المؤرخ والشاعر، فى تونس.
١٢٦٢(٦٦٠)	استيلاء ألفونسو العاشر على مدينة قادس.
١٢٦٩(٦٦٨)	وفاة الصوفى الإسبانى ابن سبعين فى مكة.
١٢٧٠(٦٦٨)	وفاة سان لويس أثناء حصار تونس.
١٢٧٣(٦٧١)	وفاة محمد الأول النصرى ملك غرناطة.
١٢٧٤(٦٧٢)	وفاة النحوى ابن مالك، صاحب الألفية، فى دمشق.
١٢٧٦	وفاة خايمة (جاقمة) الأول ملك أرجون.
١٢٧٦(٦٧٥)	المرينيون ينشئون فاس الجديدة ويقيمون قصرًا لإقامتهم فى البنية، قريبًا من الجزيرة

الخضراء، على الشاطئ الإسبانى.

١٢٨٤(٦٨٢)	وفاة ألفونسو العاشر ملك قشتالة.
١٢٨٧(٦٨٦)	استيلاء ملك أرجون على جزيرة منورقة.
١٢٩٢(٦٨٩)	شانجه الرابع يستولى على مدينة طريف.
١٣٠٠	خايمة الثانى ملك أرجون يقيم جامعة فى مدينة لاردة.
١٣٠٦(٧٠٦)	ابن عذارى يؤلف كتابه «البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب».
١٣٠٨(٧٠٨)	وفاة ابن الزبير صاحب كتاب «صلة الصلة» فى غرناطة.
١٣١٠	ألفونسو الحادى عشر يرتقى عرش قشتالة.
١٣١٣(٧١٣)	مولد ابن الخطيب فى مدينة لوشة.
١٣١٤(٧١٣)	إسماعيل الأول من بنى نصر يرتقى عرش غرناطة.
١٣١٥	وفاة الفيلسوف والصوفى القطلونى رايموند لوليو[1].

(١) فى كتابنا : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، فصل عن : الأصول العربية لفلسفة رايموند لوليو، بقلم خوليان ريبيرا، ترجمناه إلى العربية، دار المعارف، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٤. (المترجم)

١٣١٩(٧١٩)	انتصار المسلمين فى موقعة أليكون.
١٣٣١(٧٣٢)	ارتقاء المرينى أبى الحسن العرش فى مدينة فاس.
١٣٣٢(٧٣٢)	مولد المؤرخ العظيم عبد الرحمن بن خلدون فى تونس.
١٣٣٣(٧٣٣)	ارتقاء الأمير النصرى يوسف الأول عرش غرناطة.
١٣٤٠(٧٤١)	هزيمة المسلمين فى موقعة طريف، وتسميها المدونات الإسبانية موقعة سالادو Salado.
١٣٤٢(٧٤٢)	المرينيون يحاصرون مدينة طريف.
١٣٤٤(٧٤٤)	ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة يحتل مدينة الجزيرة الخضراء.
١٣٤٨(٧٤٩)	بناء باب الشريعة فى الحمراء بغرناطة. بدء الطاعون الذي أهلك سكان المرية.
١٣٤٩	بدرو الملقب بالقاسى يرتقى عرش أرجون.
١٣٤٩(٧٥٠)	تأسيس دار العلم فى غرناطة.
١٣٥١(٧٥٢)	الرحالة ابن بطوطة يزور غرناطة.
١٣٥٤(٧٥٥)	اغتيال يوسف الأول فى غرناطة.
١٣٦٥(٧٦٧)	محمد الخامس ينشئ مستشفى غرناطة.

١٣٦٨	وفاة بدور القاسى ملك أرجون.
١٣٦٩(٧٧١)	وفاة الأديب الشاعر أحمد بن خاتمة.
١٣٧٤(٧٧٦)	اغتيال ابن الخطيب فى فاس.
١٣٩٣(٧٩٦)	الشاعر ابن زمرك يتولى منصب الوزارة فى غرناطة.
١٤٠٦(٨٠٨)	وفاة ابن خلدون فى القاهرة.
١٤١٠	خوان الثانى ملك قشتالة يستولى على أنتقيرة.
١٤١٥(٨١٨)	خوان الأول ملك البرتغال يستولى على سبتة.
١٤٢٦(٨٢٩)	وفاة الفقيه ابن عاصم فى غرناطة.
١٤٥٤	وفاة خوان الثانى ملك قشتالة.
١٤٦٩	فرناندو ملك أرجون، يتزوج من إيزابيل ملكة قشتالة.
١٤٧٩	اتحاد مملكتى أرجون وقشتالة.
١٤٨٥(٨٩٠)	الملكان فرناندو وإيزابيل يستوليان على رندة.
١٤٨٦(٨٩١)	الملكان فرناندو وإيزابيل يستوليان على لوشة.

١٤٨٧(٨٩١)	الملكان فرناندو وإيزابيل يستوليان على مالقة والمرية.
١٤٨٩(٨٩٥)	استيلاء الملكين على مدينة باسة.
١٤٩٢(٨٩٧)	الملكان يستوليان على غرناطة. خرستوف كولومبس (كولون) يكتشف أمريكا.
١٥٠١	حملة على المسلمين الذين يعيشون فى إسبانيا لإكراههم على اعتناق الكاثوليكية أو ترك أوطانهم.
١٥٢٦	طرد الموريسكيين فى مملكة بلنسية.
١٥٦٨	ثورة الموريسكيين فى جبال البشرات.
١٦٠٩	الملك فيليب الثالث يصدر قرارًا بطرد الموريسكيين جميعًا من وطنهم.

تعريف موجز بالمصادر والمراجع

● ما بين معقوفتين زيادة من المترجم

١٨٦١ دوزى، رينهارت : تاريخ مسلمى الأندلس حتى غزو المرابطين، ٧١١-١١١٠م، فى ٤ أجزاء، والطبعة الجديدة منه راجعها ونقحها ليفى بروفنسال، ليدن ١٩٣٢ . وهو كتاب جوهري، [وقد ترجمه فيدريكودى كاسترو إلى اللغة الإسبانية، وعلق عليه، وصدرت الترجمة فى أربعة أجزاء، مدريد ١٨٧٧ ، وصدرت منها طبعة ثانية فى بونس أيرس فى الأرجنتين عام ١٩٤٦ ، وترجمته أيضًا إلى اللغة الإسبانية مجدلينا س. فونتيس، ١٩٢٠].

١٨٨١ دوزى : أبحاث فى تاريخ إسبانيا وآدابها فى العصور الوسطى، الطبعة الثالثة، ليدن - باريس، جزءان ويحتوى على عدة دراسات هامة، من بينها دراسة عن السيد القنبيطور، وأخرى عن النورمانديين فى إسبانيا، وغيرها. [وقد ترجمه إلى الإسبانية أ. متشادو ألفاريث إشبيلية، بلا تاريخ فى جزئين].

١٨٩٧ سيمونيت، ف خ: تاريخ المستعربين فى إسبانيا، مدريد ١٨٩٧-١٩٠٣، دراسة جيدة، ولكنها متحيزة فى أغلب الحالات.

١٩٠٣ كوديرا، فرانسيسكو: دراسة نقدية فى تاريخ العرب الإسبان، ثلاثة أجزاء، سرقسطة - مدريد ١٩٠٣-١٩١٧، دراسة جادة وموسعة وموثقة.

١٩٠٤ دراسات تذكارية مهداة لكوديرا، بمناسبة تقاعده عن التدريس فى الجامعة، دراسات عن الثقافة المشرقية، سرقسطة ١٩٠٤، وهى مجموعة من الأبحاث الهامة عن الحضارة الإسبانية الإسلامية.

١٩١١ ألتاميرا، ر.: تاريخ إسبانيا والحضارة الإسبانية، أربعة مجلدات، برشلونة ١٩١١.

١٩١٩ أرنولد ت. و.: الدعوة إلى الإسلام، بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، الطبعة الثانية، لندن ١٩١١، وهو مؤلف أساسى. [وقد ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور حسن إبراهيم، والدكتور عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوى، وصدرت الطبعة الأولى من الترجمة فى القاهرة ١٩٤٧].

— غومث مورينو م.: كنائس المستعربين، الفن الإسبانى فى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر، مدريد

١٩١٩، دراسة جيدة عن التأثير الإسلامى فى فن المستعربين.

١٩٢٠ بييستروس أ. Ballestros : تاريخ إسبانيا وتأثيره فى التاريخ العالمى، الجزئين الثانى والثالث، وهو مؤلف واف، ويضم قائمة مفصلة بالمصادر. برشلونة ١٩٢٠. [وثمة طبعة جديدة مزيدة ومنقحة].

١٩٢٢ جونثالث بالنثيا، أنخل : الخلافة فى الغرب فى كتاب كمبردج عن التاريخ الوسيط، المجلد الثالث، ص ٤٠٠-٤٤٢، كمبردج ١٩٢٢.

١٩٢٣ بواسو ناد أ. : من جديد حول ملحمة رولان، باريس ١٩٢٣، دراسة موضع خلاف، ولكنها تضم وجهات نظر جديدة وهامة.

١٩٢٥ جونثالث بالنثيا : تاريخ إسبانيا الإسلامية، ويمكن الرجوع إلى الطبعة الثالثة من هذا المختصر البسيط والمفيد، برشلونة ١٩٣٢.

— لمبير، إ : طليطلة وباريس، فى سلسلة «مدن الفن الشهيرة»، ١٩٢٥، وهو تصور ممتاز لطليطلة الإسلامية.

١٩٢٦ سانتيشيث البرنس : مناظر عن الحياة فى ليون فى القرن العاشر، مدريد ١٩٢٦، دراسة تاريخية فى

شكل روائى، ومع ذلك فهى مفيدة للغاية.

— مرسية ج. : مختصر تاريخ الفن الإسلامى. فن المعمار فى تونس والجزائر والمغرب وإسبانيا وصقلية، جزءان، باريس ١٩٢٦-١٩٢٧، وهو مؤلف أساسى لدراسة الفن الإسبانى الإسلامى، مع خلاصة تاريخية ممتازة حقًّا.

١٩٢٧ أسين بلاثيوس، ميجيل : ابن حزم القرطبى وتاريخه للأفكار الدينية، الجزء الأول، مدريد ١٩٢٧، وهو دراسة ممتازة عن ابن حزم. [وقد ترجمته إلى اللغة العربية وسوف ينشر قريبًا].

— مال، إ. ر. : الفن والفنانون فى العصور الوسطى، باريس ١٩٢٧، ويتضمن اكتشافات مضيئة عن أصول الفن الرومانى.

١٩٢٨ ألتاميرا، ر: تاريخ الحضارة الإسبانية، وهو مختصر بالغ الإيجاز، مدريد ١٩٢٨.

— جونثالث بالنثيا، أنخل: تاريخ الأدب العربى الأسبانى، برشلونة ١٩٢٨، وهو مختصر جيد، وصدرت الطبعة الثانية منه منقحة عام ١٩٤٩. [ونقله إلى العربية غير ملتزم بالنص الدكتور حسين مؤنس، بعنوان «تاريخ الفكر الأندلسى» القاهرة، ١٩٥٥].

— ريبيرا تراجو، خوليان: نبذ ومقالات، جزءان، مدريد ١٩٢٨، ويضم أشهر الدراسات التى قام بها هذا العلامة الإسبانى، وبعضها بالغ الأهمية. [وقد ترجمت منها الدراسات التالية. «الأصول العربية لفلسفة رايموندلل، ابن القوطية وكتابه تاريخ افتتاح الأندلس وذلك فى كتابى. دراسات أندلسية، فى الأدب والتاريخ والفلسفة، وصدر عن دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٣].

١٩٢٩ أنتونيا ملتشور، م. : البلاط الأدبى للحكم الثانى فى قرطبة، سان لورنثو بالإسكوريال، ١٩٢٩، وهى دراسة مفيدة.

— فامر هـ. ج. : تاريخ الموسيقى العربية، لندن ١٩٢٩ وهو أفضل متخصص فى وقتنا فى هذه المادة. [وقد ترجمه الدكتور حسين نصار إلى اللغة العربية، وصدرت الطبعة الأولى من الترجمة، القاهرة، عام ١٩٥٦].

— مييننديث بيدال، رامون: إسبانيا فى عصر السيد، جزءان، مدريد ١٩٢٩، وهى دراسة قيمة، رغم تعاطف المؤلف الشديد مع السيد [وتوالت طبعاتها بعد ذلك].

١٩٣٠ أنتونيا ملتشور: إشبيلية وآثارها العربية، سان لورنثو بالإسكوريال ١٩٣٠، ويتضمن ترجمة ونشر الفقرات الخاصة بإنشاءات الموحدين فى إشبيلية، منقولة من تاريخ ابن صاحب الصلاة. [وهو كتاب «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، وقد حقق الدكتور عبد الهادى التازى السفر الثانى منه، ونشره فى بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م].

— غرسية غومث، إميليو: الشعر الأندلسى، مدريد ١٩٢٠، وهو اختيار موفق جدًّا، لقصائد ومقطوعات من الشعر الأندلسى، ترجمها إلى الإسبانية، ومهد لها بمقدمة مفيدة. [وتوالت طبعات الكتاب فى الإسبانية ثم نشر فى العربية، بعد أن ترجمت المقدمة، وظهر منه طبعتان، الأخيرة منها القاهرة ١٩٥٦].

— هالفن ل.: البربر، باريس ١٩٣٠، دراسة من الدرجة الأولى.

١٩٣١ أسين بلاثيوس، الإسلام فى ثوب مسيحى، مدريد ١٩٣١، وهو أهم مما يوحى به العنوان للوهلة الأولى.

— جونثالث بالنثيا: الإسلام والغرب، مدريد ١٩٣١، تصنيف مفيد لأهم التأثيرات.

— ليفى بروفنسال إ.: نقوش إسبانيا العربية،

باريس - لندن ١٩٣١.

- نيكل أ. د: ترجمته لطوق الحمامة لابن حزم إلى اللغة الإنجليزية بعنوان: A Book Containining the risala Known as Rhe Dovés Neck-ring ablout Love and Lovers باريس ١٩٣١، وقدم لها بدراسة انتهى فيها إلى نتائج قابلة للمناقشة.

- أرنولد توماس، وألفرد جيوم، تراث الإسلام، أكسفورد عام ١٩٣١، وهو مجموعة من الدراسات لجوانب الحضارة الإسلامية قام بها عدد من كبار المستشرقين بإشراف أرنولد، والمقال الذى كتبه ج. ب. ترند عن إسبانيا موضع نقاش فى أكثر من موضع. [وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية فى القاهرة عام ١٩٣٦ م، ثم ترجم كرة أخرى فى بغداد عام ١٩٥٤م، وتكررت طبعاته. هذا وصدر كتاب آخر، يحمل الاسم نفسه، وسار على النهج بعينه، وهو تراث الإسلام بإشراف جوزيف شخت، وهو مجموعة من الدراسات تتناول أيضًا جوانب الحضارة الإسلامية المختلفة، فى ضوء ما نشر أخيرًا من مخطوطات، أو ما انتهى إليه الباحثون من كشوف، وصدر فى عام ١٩٧٣، وتولى المجلس الوطنى للثقافة والفنون

والآداب فى الكويت ترجمته، ونشره فى سلسلة «عالم المعرفة» التى يصدرها، فى ثلاثة كتب، عام ١٩٧٨، وتحمل الأرقام ٨ و١١ و١٢].

١٩٣٢ هالفن ل. : نهضة أوربا، باريس ١٩٣٢، وهو دراسة ممتازة.

— ليفى بروفنسال : إسبانيا والإسلام فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى). النظم والحياة الاجتماعية، باريس ١٩٣٢.

— سانتشيث البرنس. إسبانيا والإسلام، وقد ترجمه ب. جينارد إلى اللغة الفرنسية فى «المجلة التاريخية»، المجلد ١٩٦، باريس ١٩٣٢، وبعض صفحاته تساوى مجلدًا كاملاً، وقد ظهر أولاً باللغة الإسبانية فى مجلة «الغرب» بعنوان «إسبانيا والإسلام»، المجلد ٧٠، مدريد ١٩٢٩. [وأعاد نشره أخيرًا، عام ١٩٧٤، فى سلسلة أوسترال التى تصدرها دار «إسباسا - كالب»، فى مدريد، بعنوان إسلام إسبانيا والغرب، ويحمل رقم ١٥٦٠ فى السلسلة].

— تيراس هـ. : الفن الإسبانى الإسلامى، منذ بدئه فى القرن الثالث عشر، باريس ١٩٣٢، وهو دراسة قيمة وموضح بصور ورسوم رائعة.

١٩٣٣ لامبير إ. : الفن الإسبانى الإسلامى، والفن الرومانى، فى مجلة «هيسبيرس»، المجلد ١٧، عام ١٩٣٣، ص ٢٩ - ٤٣، مقالة موحية.

— نيكل، آ. ر. ابن قزمان، مدريد ١٩٣٣، نشر نيكل الديوان، وترجم جانبًا من أزجاله. ولا يمكن استخدامه إلا بحذر شديد. انظر: ج. س. كولين فى مجلة هيسبيرس، المجلد ١٦، ص ١٦٥ - ١٦٩. [ونشر غرسية غومث ديوان ابن قزمان من جديد، فى طبعة جاءت فى ثلاثة مجلدات، ونشرتها دار «جريدوس»، المتخصصة فى نشر الدراسات الجادة والعميقة، مدريد ١٩٧٢، وقد شغل الديوان وما ألحق به، ونشر نصه فى الحروف اللاتينية، مع ترجمته إلى اللغة الإسبانية، المجلدين الأول والثانى منهما، وأودع المؤلف المجلد الثالث آراءه وأفكاره ودراساته عن الشاعر وفنه، ومصادر أزجاله وموسيقاها وعروضها ونشأتها. ومع أنه لا يمكن التسليم بما قاله من الجميع، فإن تحقيقه لنص الديوان جاء عملاً أستاذًا، وبالتالى ألقى ستار النسيان على كل ما سبقه من محاولات].

١٩٣٤ كالميت ج. . العالم الإقطاعى، باريس ١٩٣٤، ويقدم

مصادر جيدة عن الحالة المعاصرة لهذه القضايا.

— غرسية غومث. بغداد وملوك الطوائف، فى مجلة «الغرب» العدد ١٢٧، مدريد ١٩٣٤.

— غرسية غومث «مدح الإسلام الإسبانى»، وهو ترجمة لرسالة الشقندى «فضائل الأندلس»، وتعليق عليها مدريد - غرناطة ١٩٣٤.

— مينينديث بيدال رامون. تاريخ وملحمة، مدريد ١٩٣٤، وهو مجموعة من المقالات المتصلة بالتاريخ الأدبى والسياسى للعصر الوسيط.

— أوريتجا إي جاسيت، ابن خلدون يكشف لنا السر، فى جريدة «الإسبكتادور»، المجلد الثامن، مدريد ١٩٣٤ وهو مقال ملهم.

١٩٣٥ بلاشير، ر. : ترجمة كتاب «طبقات الأمم» لصاعد الطليطلى، إلى اللغة الفرنسية، باريس ١٩٣٥.

— بلاشير: الإسلام والغرب فى مجلة «كراسات الجنوب»، مارسيليا، أغسطس - سبتمبر ١٩٣٥، مجموعة من المقالات ذات قيمة متفاوتة.

١٩٣٦ ديهل ش. ومرسيه ج : العالم الشرقى من عام ٣٩٥ إلى ١٠٨١م، وهو الجزء الثالث من كتاب «تاريخ

العصور الوسطى من التاريخ العام لمؤلفه كلوتز»، باريس ١٩٣٦، ويضم فصولاً جيدة عن إسبانيا الإسلامية.

— ليفى بروفنسال: مذكرات عبدالله آخر ملوك بنى زيرى. غرناطة، مدريد غرناطة، ١٩٣٦، نشر وترجمة لنص بالغ الأهمية عن تاريخ العلاقات الإسلامية، المسيحية، فى أواخر القرن الحادى عشر، واكتشفه الناشر فى مكتبة مسجد القرويين فى فاس، [وقد نشر النص العربى فى القاهرة، بتحقيق ليفى بروفنسال، تحت عنوان «مذكرات الأمير عبد الله، آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة، والمسماة بكتاب التبيان، وصدر عن دار المعارف فى سلسلة ذخائر العرب، رقم ١٨، القاهرة ١٩٥٥].

١٩٣٧ مينيندث بيدال: الشعر العربى والشعر الأوربى، فى «المجلة الكويبية»، يناير - مارس ١٩٣٧، وربما يصدر أحكامًا قاطعة، فى قضايا جد معقدة. [وصدر البحث مع مقالات أخرى متصلة به، فى كتاب مستقل بالعنوان نفسه، فى سلسلة إسباسا كالب»، العدد رقم ١٩٠، مدريد ١٩٤١، وصدرت منه طبعات عديدة تبلغ العشر، حتى وقتنا هذا]. وانظر. سيروج. فى

«المجلة الإسبانية»، المجلد ٣٩، ص ٤٣٠-٤٣٢.

— بيريس هنرى: الشعر الأندلسى فى القرن الحادى عشر، ملامحه العامة، وقيمته وثيقة، باريس ١٩٣٧، وهو دراسة مفصلة وموسعة، ومنصفة إلى حد بعيد، إلا أنها - ربما - لا تعطى المؤثرات المشرقية كل دورها وأهميتها. [هذا وقد ترجمت الكتاب إلى اللغة العربية، وسوف ينشر عام ١٩٨٦ عن دار المعارف بالقاهرة].

— بيرين هـ. : محمد وشارلمان، بروكسل - باريس وهو كتاب ظهر بعد موت مؤلفه العالم البلجيكى، ولو قدر لمؤلفه أن يكمله لكان ممكننًا أن نأخذ عليه نقص مصادره إلى حد معيب، فيما يتصل بالوثائق التاريخية المتصلة بالغرب الإسلامى.

— لو. ف. : الغزوات البربرية، باريس ١٩٣٨، وبينها غزو العرب لإسبانيا، وهى وجهة نظر قابلة للنقاش فى جوانب كثيرة منها، والوثائق المتصلة بإسبانيا الإسلامية مأخوذة كلها من كتاب «إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر» تأليف ليفى بروفنسال.

— ليفى بروفنسال: السيد فى التاريخ، فى المجلة التاريخية، المجلد ١٨٠، باريس ١٩٣٧، الصفحات ٥٨-٧٤. [وقد نشر المؤلف المقال مع دراسات أخرى

فى كتابه «إسلام الغرب»، وترجم إلى اللغة العربية بعنوان: «الإسلام فى الغرب والأندلس»، ونشر فى القاهرة، فى مجموعة «الألف كتاب»، عام ١٩٥٦].

١٩٣٨ دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الفرنسية، أربعة مجلدات ومجلد خامس جاء ملحقاً لها، وتم تحريرها عام ١٩٣٨.

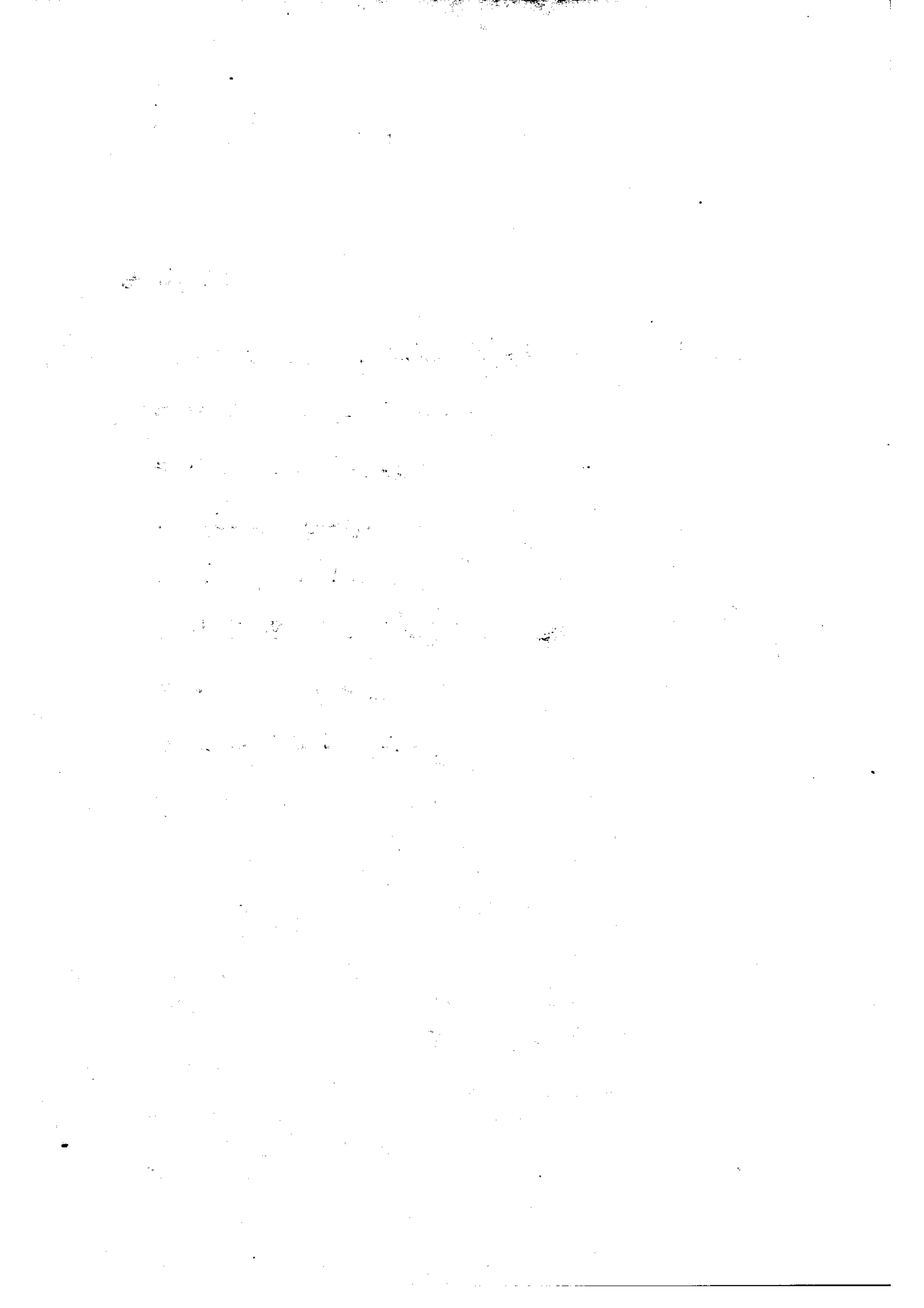
— ليفى بروفنسال: إسلام الغرب، دراسات تاريخية متصلة بالعصر الوسيط. [انظر الفقرة الخاصة بالسيد فى التاريخ].

— ليفى بروفنسال: شبه جزيرة إيبرية فى العصر الوسيط طبقًا لكتاب الروض المعطار.

— ليفى بروفنسال: مواد من أجل كتابة التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للغرب الإسلامى فى العصر الوسيط.

● المجلات :

* حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر - باريس.
* الأندلس، مدريد - غرناطة.
* المجلة الإسبانية، بوردو.
* بيزنطة، بروكسل.
* هيسبيريس، باريس.
* المجلة الأسيوية، باريس.
* مجلة الغرب، مدريد.
* المجلة الإسبانية، باريس.



الفهرس

صفحة

كتب أخرى للمؤلف

- **امرؤ القيس (حياته وشعره)**
الطبعة الخامسة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- **دراسة فى مصادر الأدب.**
الطبعة السادسة دار المعارف، القاهـرة ١٩٨٥
- **ملحمة السيد: دراسة مقارنـة.**
الطبعة الثالثة دار المعارف، القاهـرة ١٩٨٣
- **مع شعراء الأنـدلس والمتنبى.**
ترجمة أمينة لكتاب المستشرق الإسبانى غرسيـة غـومث الطبعـة الخـامسة دار المعارف القاهرة ١٩٩٢
- **بابلو نيرودا: شاعـر الحب والنضال.**
كتاب روز اليوسف، القاهرة، يونيـة ١٩٧٤ (نفـد).
- **دراسات عن ابن حزم وكتابه طـوق الحمامـة.**
الطبعة الرابعة – دار المعارف، القاهـرة ١٩٩٢
- **تحقيق طوق الحمامة لابـن حـزم.**
الطبعة الرابعة – دار المعارف، القاهـرة ١٩٨٥
- **الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجـه.**
دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨.
- **دراسات أندلسية: فى الأدب والتاريخ والفلسفـة.**
الطبعة الثالثة دار المعارف، القاهـرة ١٩٨٧

• الشعر العربى المعاصر: روائعه ومدخل لقرائـه.
الطبعة الرابعة دار المعارف، القاهـرة ١٩٨٨

• الفن العربى فى إسبانيا وصقليـة.
للمستشرق الألمانى فون شاك، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

• الحضارة العربية فى إسبانيـا.
للمستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال الطبعةِ الثانيـة، دار المعـارف، القاهـرة ١٩٨٥

• التربية الإسلامية فى الأنـدلس.
للمستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا، دار المعـارف، القاهـرة ١٩٨٠

• الأخلاق والسير لابن حـزم.
تحقيق وتقديم وتعليق الطبعة الثانية دار المعـارف، القاهـرة ١٩٩٢

• الشعر الأندلسى فى عصر الطوائـف.
للمستشرق الفرنسى هنرى بيريس، دار المعـارف، القاهـرة ١٩٩١

• الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية، من البداية حتى النهايـة
للمستشرق الألمانى فون شاك – الجزء الأول ، دار المعـارف ، ١٩٩١

• مناهج النقد الأدبى، ترجمـة، دار المعـارف ١٩٩٢

تحت الطبع :

• مقدمة فى الأدب الإسلامى المقـارن.

• الحب عند دانتى وابن حـزم
دراسة مقارنة مع ترجمةِ كتاب الحياة الجديـدة لـدانتى.

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ١٠٥٥٩
الترقيم الدولى	977 – 02 – 4300 – 0	ISBN

٣ / ٩٣ / ٣٣
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)